معهد الدراسات الاسلامية

تاريخ انتشار الاسلام في غرب أفريقيا

تأليف

دكتور

عبد الرحمن زكي

١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م

اهداءات ٢٠٠١

الأستاذ الدكتور / عبد الفتاح منصور

معهد الدراسات الاسلامية

تاريخ انتشار الاسلام
فى غرب أفريقيا

تأليف

دكتور
عبد الرحمن زكى

١٩٧٧

الفصل الاول

بسم الله الرحمن الرحيم

مراحل إنتشار الإسلام فى أفريقيا

١ ـ شمال أفريقيا

دخل الإسلام أفريقيا بصحبة الجيش العربى الذى فتح مصر تحت قيادة عمرو بن العاص (٢٠ هـ-٦٤٠) . ومن ثم أخذ الدين الحنيف ينتشر تدريجيا فى البلاد ، كلما قدم العهد بالعرب فيها، فلقد اعتنق بعض القبط-الدين الإسلامى منذ البداية ، ربما ميلا إلى الانتماء إلى دين الطبقة الحاكمة والتمتع بما لها من حقوق . ولا ريب فى أن أفريقيا من القبط أقبلوا على إعتناق الإسلام عن إيمان ، ولعل فريقا آخر كان قد مل الخلافات الدينية التى كانت تقسم العالم المسيحى فى ذلك الوقت، والإضطهاد الذى كان يتعرض له أصحاب المذهب الذى لاتؤيده الحكومة السائدة .

ويمكن القول أن الإسلام فى إنتشاره بين شعوب أفريقيا مر بعدة مراحل، وأهمها أربعة :

المرحلة الأولى (٦٤٠ م - ١٠٥٠ م)

تبدأ من عام ٦٤٠ م وتنتهى فى منتصف القرن ١١ - تم فى تلك المدة فتح العرب شمال أفريقيا وإدخال أهلها فى دينهم ، وتناثر فى بعض البقاع التى تمتد من ساحل البحر المتوسط شمالا إلى السودان (بمدلوله الفسيح) . فلما انتهى العرب من دعم حكمهم فى مصر ، خرج القائد عقبة بن نافع فى بعث صغير ليستطلع أحوال شمال أفريقيا (٦٤٢ م) ، وكان قد تم لعمرو بن العاص فتح برقة ووصل إلى طرابلس (٢٢ هـ) ، كما وصلت بعض السرايا العربية

إلى فزان ، ثم فتحت صبرة ، وكادت تنقضى سنة ٦٤٧ م حتى كان الفاتح عبد الله بن أبى السرح أمير مصر قد أكمل فتح طرابلس الغرب كلها وفرض الجزية على أهلها .

يمكن القول بأن المؤسس الأول للحكم العربى فى شمال أفريقيا وفى غرب مصر ، هو عقبة بن نافع . فى عام ٦٧٢ م وفق عقبة بمعاونة البربر إلى القضاء على الحكم النصرانى فى شمال أفريقيا جملة واحدة(١) ثم جاء عزله بعد أن أنشأ قاعدة عسكرية فى القيروان (٢) ولكن يزيد بن معاوية أعاده إلى منصبه سنة ٦٨٢ ، فسار فى حملة أخرى إلى الغرب ، وظل يتقدم حتى بلغ ساحل الأطلسى وعلى الرغم من أن جيوشه اجتازت مناطق القبائل البربرية حتى منطقة الأطلس الوسطى ، فإن البربر لم يخضعوا له خضوعاً كاملا ، فقد برز زعيمهم كسيلة الذى كان عقبة قد أسره ، لينظم بالاتفاق مع الحاميات البيزنطية الباقية بالبلاد — المقاومة ضد العرب . قسم عقبة بعد ذلك قواته ، وانطلق فى الطريق المؤدية إلى جبل أوراس على رأس جماعة صغيرة ، وفى سنة ٦٨٣ م أوقع به البربر ،

---

(١) لم يكن عدد الأهالى المسيحيين فى وقت الفتح العربى كبيراً وقد ظل عددهم ينقص شيئاً فشيئاً فى خلال الخمسين عاما التى انقضت قبل أن يحرز العرب إنتصارهم النهائى ، نتيجة ما أصابهم من أعمال تخريبية ، فقد نهبت مدينة طرابلس وقتل جانب كبير من سكانها وسيق الآخرون أسرى إلى مصر وشبه جزيرة العرب ، وهناك أمثلة كثيرة على ما لقيه أهالى شمال أفريقيا من العسف على أيدى الروم .

(٢) رأى عقبة على أثر إنتصاره على البربر ، أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا ثورة أهل البلاد ، فقصد موضع القيروان وأمر ببناء المدينة ، فشيدت كما بنى بها المسجد الجامع ، ولم يلبث عقبة أن عزل وولى مكانه أبو المهاجر مولى مسلمة بن مخلد الذى ولاه معاوية مصر وأفريقيا .

فقتل وقتل المسلمون جميعهم عند تهوذا على طرف الصحراء الكبرى فاضطر زهير بن قيس إلى الإنسحاب إلى برقة وإخلاء أفريقية . وبعد سنوات قلائل أعد هذا حملة أخرى لكنه استشهد مع جماعة من رجاله وعادت البلاد مرة أخرى إلى البربر .

وفى عام ٦٦٥م سار القائد حسان بن النعمان إلى أفريقية وحمل على قرطاجة (بالقرب من مدينة تونس) ، لكنه هزم فى معركة بِنْين (٦٩٦م) واضطر إلى الارتداد أمام حملة تخريب فظيعة شنتها الكاهنة قائدة البربر ، ثم جمع العرب صفوفهم وأعادوا تنظيمها بعد ما وصلت إليهم الإمدادات من مصر ، وسار القائد حسان مرة ثانية لكنه عزل من القيادة وعين على ولاية أفريقية موسى ابن نصير الذى تمكن من تنظيم قواته ، ثم حمل على المغرب الأوسط ، فالمغرب الأقصى ، وقضى على مقاومة البربر نهائياً ، وقد بدأ هؤلاء يعتنقون الإسلام وينضمون تحت لواء القائد موسى بن نصير ومعاونه طارق بن زياد ، وكان منهم خيرة الجنود الذين فتحوا الأندلس .

إسلام البربر ونشاطهم فى الدعوة :

قاوم البربر الجيوش العربية مقاومة عنيفة، ويبدو أن إستعمال القوة فى كبح جماحهم كان له أثر أكبر مما استخدم فى سبيل هذا الكبح من وسائل الاقناع والترغيب ، فكانوا كلما سنحت لهم الفرصة ثاروا على الدين ، كما ثاروا على الحكام العرب الذين فتحوا بلادهم ، ويظهر ان إسلام البربر فى بعض الأحيان إنما كان يدفع إليه علمهم بأنه لا فائدة من التمادى فى مقاومة الجيوش العربية وكانت آخر وقفة للكاهنة زعيمة البربر المقدامة قد انتهت وهى تحارب فى جانب مواطنيها فى المعركة الختامية التى حطمت قوة البربر السياسية وأخضعت أفريقيا الشمالية للعرب وعقد الصلح بين الفريقين على شريطة أن يقدم على البربر إثنى عشر ألف محارب إلى صفوف الجيش العربى ، وكان من هؤلاء الجيش الذى أبحر سنة ٧١١ م ليفتح أسبانيا بقيادة طارق بن زياد . كان يتألف من أشخاص

دخلوا فى الإسلام حديثاً ، وقد اختير العلماء والفقهاء من العرب ليقرؤا ويفسروا لهم آيات القرآن الكريم ، ويعلموهم ما فرضه الدين الجديد من الواجبات(١) .

الفقهاء العرب الأول :

لما عين عمر بن عبد العزيز (٨١٧ م) إسماعيل بن عبد الله واليا على شمال أفريقية ، أرسل معه عشرة من الفقهاء ليفقهوا مسلمي البربر فى أمور دينهم وقد أظهر هذا الوالى قسطاً عظيما فى دعوة البربر إلى قبول الإسلام ، ومع ذلك فقد كان تحويل البربر إلى الإسلام من غير شك عمل قرون عدة ولم ترسخ قدم الإسلام ، بينهم إلا بعد أن اتخذ شكل حركة قومية ، وأصبح مرتبطاً بتولى دول البربر الحكم ، تلك الدول التى دخل فى عهدها كثير من البربر فى حظيرة الاسلام ، وكان فى ظهور المرابطين حركة قومية ودينية عظيمة جذبت عدداً كبيراً من قبائل البربر إلى الاندماج فى الأمة العربية الاسلامية .

يحيى بن إبراهيم وعبد الله بن يس : يقابلنا فى مستهل القرن الحادى عشر الميلادى ، يحيى بن إبراهيم شيخ صنهاجة ، إحدى قبائل الصحراء يبحث فى المراكز الدينية فى أفريقيا الشمالية وفى أثناء عودته من حج بيت الله بمكة يبحث عن معلم تقى متفقه ، يصحبه إلى أبناء قبيلته الجهلة داعياً إلى الاسلام وقد وفق أخيراً إلى عبد الله بن يس ، ووجد فيه الرجل الذى يصلح لهذا العمل الجليل ، إذ كان فيه من الاقدام ما يكفى للقيام بهذه الرسالة وكان تقياً زاهداً فى أسلوب معيشته ، متفقها فى الدين والشريعة وغيرها من علوم الدين . وقد وجد عبد الله بن يس أنه حتى للذين أعتنقوا الإسلام كانوا يهملون شعائرهم الدينية إهمالا شديداً ، فكرس نفسه لهدايتهم وتفقيههم فى أمور دينهم ، ولكن عنفه فى مسلكه الذى حاول بواسطته أن يصلح نفوسهم ، حول عواطفهم عنه ، ولذلك رأى أن يهجر هذا الشعب ويقصر جهوده على هداية أهل السودان إلى الاسلام .

(١) المؤرخ المقرى ، جـ ١ ص ٢٥٣

عبد الله بن يس والمرابطون :

لجأ عبد الله مع من التفوا حوله من تلاميذه ، إلى جزيرة عند مصب نهر سنغال حيث بنوا بها رباطاً وأسلموا أنفسهم فيه لعبادة متصلة . أما هؤلاء البربر الذين كانوا أكثر استعداداً للتدين ، فقد أحسوا بأخطائهم ومسلكهم إزاء أستاذهم ، فجاءوا إلى جزيرته خاضعين يلتمسون منه العفو ، ويلتقون تعاليمه الدينية المخلصة ، وعلى مر الأيام تجمعت حوله هناك جماعة من تلاميذه أخذت في الازدياد ، وكانت غالبيتها من لمتونة (وهى فخذ من قبيلة صنهاجة) ورأى عبد الله بن يس بعد ذلك أن الوقت قد حان للخروج إلى محيط أوسع للعمل وذلك بأن ينقلوا العلم إلى غيرهم من الناس ، ومن ثم ذهب كل رجل إلى قبيلته وعشيرته ليعلمها ، ولكنهم لم ينجحوا في هذا السبيل . وأخيراً قاد أتباعه في عام ٩٤٢م وقد سماهم بالمرابطين ، وهاجم القبائل المجاورة وأرغمهم على قبول الاسلام بعدة انتصارات ، ومات عبد الله بن يس في عام ١٠٥٩ م ، ولكن الحركة الطيبة التى كان بدأها لم تمت بموته ، بل جاءت قبائل كثيرة من البربر لتزيد في جموع أبناء وطنهم المسلمين ثم تدفقوا من الصحراء على أفريقية الشمالية وفرضوا سيادتهم آخر الأمر على أسبانيا كذلك ، ويرجع الفضل في ذلك إلى المرابط الأمير يوسف بن تاشفين .

الإسلام في غانة :

كان عهد يوسف بن تاشفين مؤسس مراكش (١٠٦٢م) وثانى أمراء دولة المرابطين . حافلا بدخول الناس في الإسلام ، وأخذ كثيرون من الزنوج الذين كانوا تحت حكمه يتعلمون مبادىء الإسلام . وفى سنة ١٠٨٦ م طرد البربر ، والذين ظلوا وقتا ما ينشرون الإسلام في مملكة غانة ، الأسرة الحاكمة وأسلمت غالبية شعب هذه المملكة القديمة ثم فقدت استقلالها في القرن الثانى عشر الميلادى واحتلها الماندنجو (١) وكان هؤلاء من أعظم أجناس أفرقيا وقيا.

(١) معنى كلمة الماندنجو أو مالنكى شعب مالى أو رعايا مالى ، ويقابل =

ويذكر عنهم الرحالة المغربى الحسن بن الوزان (ليون الأفريقى)، أنهم أكثر الزنوج مدنية ، وأشدهم ذكاء وأجدرهم بالاحترام . وكان هؤلاء الماندنجو من أنشط الدعاة إلى الإسلام الذى انتشر بواسطتهم بين الجماعات المجاورة لهم .

ابن تومرت (دولة الموحدين) :

ويبدو أن تكون الحركة القومية الكبرى التى نشأت بين قبائل البربر وهى ظهور الموحدين فى بداية القرن الثانى عشر الميلادى، قد جذبت إلى المسلمين بعض القبائل التى كانت بعيدة عن الإسلام حتى ذلك الحين ، ويعزى إلى ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين ، تقريب عقائد هذه الطائفة فى التوحيد إلى العامة . وكان ذلك عن طريق ماألفه من الكتب باللغة البربرية وقد شرح فيها قواعد الإسلام الأساسية ، كما أنه أمر بأن يكون آذان الصلاة بلغة البربر . ومع هذا فقد ظل بعض قبل البربر فى داخل الصحارى على الوثنية حتى نهاية القرن الخامس عشر .

هذا ما كان من شأن انتشار الإسلام فى شمال أفريقيا وغربها فى المرحلة الأولى . ولننتقل بعد ذلك إلى المرحلة الثانية (١٠٥٠ — ١٧٥٠ م) .

المرحلة الثانية (منتصف القرن ١١ — منتصف القرن ١٨) :

عودة إلى شمالى أفريقيا :

أصاب الدولة العباسية الكثير من عوامل التفكك . وقد حدث مثل هذا

= هذه الكلمة عند قبائل الهوسا ونقاره والماندنجو من أهم الشعوب التى كان يتألف منها سكان السنغال ، ويحتلون فى السودان الفرنسى (سابقاً) مكانة مماثلة لمكانة قبائل الهوسا فى نيجيريه الشماليه : ومن قبائل الماندى دويلة وكاسونكى وجولونكى وبمبارة وسوننكى ومالنكى ، ويقدر عدد الماندنجو اليوم بقرابة مليونين نسمة .

فى أفريقيا أيضاً . ففى مصر وسورية حلت الدولة الأيوبية (١١٧١ - ١٢٥٠م) محل الفواطم . ويرجع الفضل فى ذلك إلى السلطان صلاح الدين الأيوبى الذى قضى معظم أيام حكمه بعيداً عن مصر يحارب الصليبيين ، بعد أن تم له توحيد صفوف العرب فى العراق والشام وشبه الجزيرة العربية ومصر فانتصر على الصليبيين فى معركة حطين (١١٨٧ م) ، واستعاد بيت المقدس كما أنه دحر الأعداء فى صور وعكا والرملة . وقد عمل خلفاؤه على الحفاظ بمكانة مصر وجمع كلمة المسلمين . وفى أيام السلطان الكامل غزا الصليبيون دمياط (١٢١٨) فملكوها ثم زحفوا إلى القاهرة ، ولكن المصريين انتهزوا فرصة الفيضان ، فأطلقوا الماء على معسكرات الصليبيين بدمياط ولم يمض وقت طويل حتى عاد الصليبيون مرة أخرى تحت قيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، فاستعاد دمياط وزحف إلى المنصورة ، ولكن تصدى له المصريون وكان لهم النصر العظيم فى معركة المنصورة (١٢٥٠م).

وفى أثناء ضعف الأيوبيين ، نهض زعماء المماليك البحرية بانقلاب عسكرى فخلعوا أسرة الأيوبيين ، وانتقل الملك إلى دولتهم (١٢٥٠ — ١٣٨٢م) ثم انتقل إلى المماليك الجراكسة (١٣٨٢-١٥١٧) .

أما التفكك الذى حدث فى الشمال الإفريقى ؛ فقد شمل البلاد التى تعرف اليوم بتونس والجزائر والمغرب . فقد أسس الأغالبة دولتهم بعد أن كانوا تابعين للعباسيين ، وكان أولهم ابراهيم (الأول) ثم انتهت دولتهم (٩٠٩م) على أثر قيام الفاطميين (٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م) ، وكان منهم ولاة صقلية . وفى المغرب الأوسط نهض بنو زيرى وجعلوا القيروان قاعدتهم (٩٧٢م-١١٤٨) كما أسس بنو حماد دولتهم فى المغرب الأوسط أيضا وجعلوا قاعدتهم فى قلعة بنى حماد (١٠٠٧ — ١١٥٢) ثم المرابطون بشمال أفريقيا والأندلس وغرب أفريقيا (١٠٥٦ - ١١٤٦م) ، وجاء الموحدون من بعدهم ليحلوا محلهم (١١٣٠ - ١٢٦٨) ثم بنو حفص بتونس (١٢٢٨ - ١٥٣٤) ، وبنو زيان بتلمسان

(١٢٣٥ - ١٣٩٤) وأصلهم من البربر . ويعرفون ببنى عبد الواد . وبنو مرين بمراكش (١١٩٥ - ١٤٧٠) ثم دولة الشرفاء بمراكش أيضـــا (١٥٤٤ حتى اليوم) .

لننتقل إذن إلى أهم أحداث المرحلة الثانية فيما بين عامى ١٠٥٠ ، ١٧٢٥ ، وكان من أهمها قيام الدول الإسلامية التى سنذكرها .

مالى وسنغاى وكانم :

لا نستطيع أن نتجاهل فضل التجار البربر من أفراد قبائل لمتونة وجدالة اللتين تنتميان إلى قبيلة صنهاجة الكبيرة ، فيرجع إليها جميعا انتقال الإسلام رويدا رويدا عبر الصحراء الكبرى إلى الزنوج فى غرب أفريقية أى فى السودان الغربى ، وقد توجت جهودهم حركة المرابطين ، فكان فى عهد يوسف بن تاشفين أبان الثلث الثانى من القرن ١١ حافلا بدخول الزنوج فى الإسلام . ففى عام ١٠٧٦ م تغلب المرابطون على الأسرة الوثنية الحاكمة فى مملكة غانا ، ومن ثم أسلم أفراد عديدون فى الشعب الغانى وفى الشعوب المجاورة . وفى خلال القرنين ١٢ و ١٣ احتلت قبائل المناندنجو (Mandingo) غانا وأسسوا دولة إسلامية عرفت باسم مالى ، كان يعرفها المسلمون فى المشرق بلاد التكرور ، وقد عمل ملوك هذه الدولة على تعزيز الإسلام ورفع مكانته ، فقربوا إليهم علماء الدين ، وشيدوا المساجد وبنوا المعاهد الدينية ، واستقدموا الفقهاء فى مصر والمغرب ، وعلى أيامهم ازدهرت تمبكتو ومدينة مالى التى كانت قاعدتهم ، وكان ملوك مالى قد دخلوا فى الإسلام منذ زمن سابق ، ربما فى القرن ١٠ أو ١١ ، وقيل إن أول من أسلم منهم الملك « برامندانه » الذى أدى فريضة الحج بعد إسلامه ، ثم حكم بعد ملك اسمه « مارى جاطة » (الملك الأسد) فقوى ملكه وتغلب على قبائل صوصو (Susso) القوية . ومن أشهر ملوك مالى : منسا على أى السلطان على وقد أدى فريضة الحج على أيام حكم الملك الظاهر بيبرس ، فمر بالقاهرة واحتفى به . ونذكر أيضاً « منسى موسى » الذى دوى اسمه فى بلدان العالم العربى حينما

قصد القاهرة عام ١٣٢٤ وهو فى طريقه إلى مكة وقد رافقه حشد كبير من الوزراء والعلماء والأتباع .

وفى نهاية هذه المرحلة . ازدهرت دولة سنغاى الإسلامية وتعرف أيضاً بامبراطورية جاو (Gao) ، وقد شغلت منطقة كبيرة فى حوض النيجر ، وتمكن مؤسسها « سنى على » (Sonni Ali) (حكم ما بين ١٤٦٤ — ١٤٩٢) من إخضاع القبائل الثائرة المحيطة ببلاده . ثم نهض خلفه اسكيا محمد الكبير (١٤٩٣ — ١٥٢٨) بشئون البلاد الروحية والسياسة والإدارية ، وفى أيامه كثر عدد العلماء البارزين ، ومنهم الشيخ محمد عبدالقادر المغيلى ، والمؤرخ عبد الرحمن السعدى ، والفقيه الكبير أحمد بابا التمبكتى ، ولم تستطع سنغاى أن تحتمل الضربات الشديدة التى وجهها المغرب ضدها فتفتتت أوصالها وضعف شأنها وزالت كدولة إسلامية ذات شأن .

ويمكن القول باختصار بأنه فى نهاية المرحلتين الأولى والثانية ، «كان الإسلام قد استقر فى المنطقة الغربية من أفريقيا ، باستثناء أقاليم الغابات الاستوائية لتعذر اقتحامها ، فضلاً عن بعض جيوب كانت مواطن القبائل الوثنية المتمسكة بمعتقداتها القديمة .

المرحلة الثالثة (١٧٢٥ — ١٩٠٠) :

يمكن القول أن هذه المرحلة بدأت بالنشاط الإسلامى فى الحكومات الدينية التى نهضت فى غرب أفريقيا قبل عصر الشيخ المصلح عثمان الفودى ومن بعده الحاج عمر تال ، وأحمد الصمد (ساموري) . فلقد تميزت هذه المرحلة بظهور عدد من الزعماء المسلمين حملوا رايات الجهاد - الواحد بعد الآخر ، على رأس حركات دينية ، كانت الأولى منها فى منطقة « فوتوجالون » سنة ١٧٢٥ ، وانبثق عنها عدة دويلات ذات حكومات دينية ، قامت فى النطاق السودانى الممتد من غينيا (فوتاجالون عام ١٧٧٦) وسنغال (فوتوتورو سنة ١٧٧٦) .

عبر ما سينا (١٨١٨) وسكوتو (١٨٠٢) والمهدية فى سودان النيل (١٨٨١)، إلى جانب إمبراطورية الفولة تحت زعامة الشيخ عثمان الفودى، فالحاج عمر، ومن بعده ساموري فضلا عن جهود الطوائف الدينية وعلى رأسها: القادريه والتجانية.

يقابلنا في طليعة الزعماء الدينيين، إثنين من الطراز الأول وهما، ابراهيم موسى المعروف باسم (كاراموا أليفا)، وثانيهما ابراهيم سوري وقد انضم إليهما زعماء قبائل الفولة المهاجرون من منطقة ماسينا وجعلوا جومبا مركز نشاط مدارسهم الدينية فنجحوا سنين طويلة حتى دب الشقاق بين الفولة وزعماء سوليما واستمر الصراع حتى ١٨٠٥. وفى خلال تلك المدة كان المسجد الجامع هو القاعدة الرئيسية للحكم تحيط به مساكن أسرات الزعماء ويتزعمهم الإمام الذي يختارونه ويعاونه مجلس مؤلف من رؤوس الأسرات ويلى ذلك المديرية ويحكمها حاكم سياسى يعينه الإمام وكان لكل حاكم مجلس الشورى.

وكما رأينا قامت فى خلال تلك المرحلة نهضة إسلامية قوية بفضل زعماء الإصلاح الدينى ورجال الطرق الدينية فى غرب أفريقيا تشبه حركات الاصلاحات التى قامت فى الشرق العربى تحت زعامة محمد بن عبد الوهاب فى شبه الجزيرة العربية، وأحمد المهدى (١٨٨٢) فى السودان الشرقى، ثم الشيخ محمد عبده فى مصر (١٨٤٩ — ١٩٠٥) فالسيد محمد رشيد رضا.

عثمان دان فوديو:

يقابلنا الشيخ عثمان دان فوديو الذى يعود الفضل إليه فى رفع راية الجهاد ودعم الاسلام بين قبائل الهوسا وكان قد تأثر بمبادىء الوهابيين بعد أدائه فريضة الحج، ولما عاد إلى موطنه أصبح داعية من الطراز الأول، ثم أسس دولة فى شمال نيجيريا والكامرون، وشيد مدينة سكوتو ١٨٠٢ لتكون قاعدة حركته ومزارا لأتباعه بعد وفاته.

وحد عثمان جماعات كثيرة من الفولة المنتشرين فى شتى أقاليم الهوسا

وجعل منهم جماعات قوية ، ثم قادهم إلى الأقطار الوثنية المحيطة بهم فسقطت الواحدة بعد الاخرى ، ومن ثم أصبحت أراضى الهوسا تحت حكم عثمان قبل وفاته (١٨١٧) . وهكذا تزعم دولة كبيرة فى شمال نيجيريا وأعلن نفسه أمير المؤمنين . ثم قسم دولته بين ولده وشقيقه اللذين زادوا كذلك فى توسيع حدود دولة الفولة أو امبراطوريتهم وتحــــدد مدينة أدماوه التى أسست عام ١٨٣٧ حدود فتوح هذه الدولة تجاه الشرق ، كما كانت مدينة آيلورين فى بلاد اليوروبا الحــــد الجنوبى الغربى لامبراطورية الفولة حتى قامت الإدارة البريطانية فى نيجيريا عام ١٩٠٠ .

الحاج عمر قال :

وهناك حركة الحاج عمر التى نشطت فى السنغال بعد أن جمع حوله الأتباع المجاهدين من مواطنيه . أثار جميع مسلمى بلاد غابون ووطد فيها دعائم الطريقة التجانية ، ثم هزم قبائل البمبارة الوثنية على كونياكرى فى غنيا وفى ١٨٥٤ جعل قاعدته فى نيورو — واستطاع الحاج عمر أن يستولى على مملكة سيجو وبلاد ماسينا ، وفى أثناء جهاده ضد الفرنسيين توفى (١٨٦٥) بعد أن خلف لطريقة التجانية سلطنة إسلامية كبيرة فى قلب بلاد الزنوج الوثنيين ؛ وخلف الحاج ابن أخيه ومريد آخر إسمه « أحمد وشيخو » على رأس الدولة التى أطاح بها الفرنسيون بعد ذلك .

أحمد وساموري توري .

وفى حوالى الثلث الثانى من القرن التاسع عشر قامت فى جنوب سنغامبيا على يد الإمام أحمد وساموري (الصمد) حركة أخرى إسلامية نشيطة ؛ فقد التف حوله مريدوه ثم أسس حكومة قوية فى جنوب سنغامبيا فى المنطقة التى ترويها روافد نهر النيجر العلوية . وقد بلغ الامام الصمد أوج مكانته حوالى عام ١٨٨١ ؛ ثم اصطدم بالفرنسيين ؛ فأسروه عام ١٨٩٨ ثم توفى بعد سنتين .

الطرق والطوائف الدينية :

ننتقل بعد ذلك إلى الكلام على أهم الطرق والطوائف الدينية التى كان لها الفضل فى نشر الدعوة الإسلامية فى غرب أفريقية ، وأولها :

١ — الطريقة القادرية وكانت أوسع الطرق الدينية إزدهاراً ، وقد أسسها فى القرن الثانى عشر الميلادى — عبد القادر الجلانى . وتسربت إلى أفريقية فى القرن الخامس عشر بوساطة المهاجرين من واحة توات بالصحراء الكبرى ، وبعد جهد طويل لجأوا إلى تمبكتو . وفى أوائل القرن ١٩ نشطت جهود اتباع القادرية وانتشر رجالها فى أنحاء السودان الغربى ، من السنغال إلى مصب نهر النيجر ، وكثر إيفاد بعوثهم إلى مدارس القيروان وطرابلس وفاس والأزهر للتعمق فى الدراسات الدينية ، ولما عاد أفراد تلك البعوث ، أسسوا المدارس الدينية التى اتبعت مناهج منظمة وكثرت مراكزها فى عدة أنحاء .

٢ — الطريقة التجانية وتنسب إلى منشئها أبو العباس ، أحمد المختار التجانى ، ولد بالجزائر عام ١٧٣٧ وتعمق فى دراسة الدين فى مدارس مصر وشبه الجزيرة ، ولما عاد إلى وطنه أسس طريقته التى تعتمد على الدعوة والكفاح ، وبرز من دعاتها محمود بن على التونسى ومحمد الكبير ومحمد الصغير والحاج على بن عيسى ، كما نشط فى دعوتها الزعيم الحاج عمر طال الذى تم على يديه إنتشار الطريقة فى ربوع غرب أفريقيا .

٣ — الطريقة السنوسية ، وتنسب إلى مؤسسها الفقيه الجزائرى سيدى محمد بن على السنوسى ، بدأ يدعو لها عام ١٨٣٧ لإصلاح شأن المسلمين ونشر الدعوة ، وقد تأثرت السنوسية بالتعاليم الوهابية ، وبموته عام ١٨٥٩ كانت السنوسية قد نجحت فى إنشاء دولة دينية ، ولقد انتشر أتباع السنوسية فى أفريقية الشمالية وتناثرت زواياها بين غرب الدلتا إلى المغرب ، وامتدت إلى واحات الصحراء الكبرى ، حتى وصلت إلى كانم ووادای وتشاد وشمال نيجيريا :

وكانت اللغة العربية هى لغة الدعوة التى استخدمتها تلك الطريقة الدينية فى نشر منهجها ، ولذلك تعتبر هذه الطريقة من أهم عوامل انتشار اللغة العربية ليس فى غرب أفريقيا فحسب . بل وفى قلبها وفى شرقها أيضاً .

أقام المهديون دولتهن فى السودان فى أعقاب إنتصارات قوات المهدى على الحاميات المصرية (١٨٨٤) . وكان على رأسها فى أول الأمر محمد أحمد المهدى فلما مات تولى عبد الله بن محمد الفقيه الخليفة التعايشى زعامة الدولة حتى استشهد (١٨٩٩) .

المرحلة الرابعة خلال النصف الأول من القرن العشرين

ترتبط هذه المرحلة بالمرحلة السابقة لاسيما منذ الفترة التى أخذ فيها الاستعمار الأوربى يضع أقدامه فى جميع أنحاء أفريقيا وفى أعقاب العصر الذهبى للطرق الدينية المختلفة ، وفى هذه المرحلة انتشر الإسلام بخطا حثيثة فى مناطق كانت مغلقة ، وعلى سبيل المثال فى سنغال بين قبائل الولوف (Wotot) بفضل حركة أحمد بامبا (ت ١٩٢٧) . وفى سيراليون ، وفولتا العليا . وشمال غانة وشمال داهومى ، وتوجو ونيجيريا ، والنيجر وفى هذه المرحلة فقط لاسيما بين عامى ١٨٩٠ و١٩٣٠ ، انتشر الإسلام من ساحل أفريقيا الشرقى بين قبائل البانتو إلى داخل أفريقيا . ومع ذلك فسنتكلم فيما بعد عن مراحل انتشار الإسلام فى الشرق الأفريقى ، تنجانيقا وأوغنده والكنغو .

ومع تحسن أحوال المدن واستتباب الأمن وتطور وسائل النقل ، عن طريق إنشاء الطرق ، ومد المواصلات الحديدية عبر المسافات الشاقة الطويلة . تقدم الإسلام عبرها بفضل مراكزه الثقافية والدعاة الأتقياء على الرغم من غلاة المبشرين المسيحيين الذين رافقوا الحملات العسكرية التى كانت فى الوقت نفسه حملات صليبية بمقياس محدود ، فارتفعت نسبة المسلمين فى سنغال وغينيا وسيراليون وأقصى السودان الغربى (مالى اليوم) وفى شمال وغرب نيجيريا . وعلى العكس كان سير الإسلام بطيئاً جنوب داهومى وجنوب غانا وساحل

العاج . ونلاحظ أن فى سيراليون . قبلت المجموعتان الكبيرتان وهما المندى والتمنة — الإسلام ، واليوم أكثر من نصف سكان سيراليون يعتنقون الإسلام .

ولم يقتصر الإسلام على أهالى الشمال النيجيرى فقط ، بل أنه تجاوز الشمال إلى قبائل اليوروبا فى منطقة إيلورين فى الجنوب واعترف بالإسلام ديناً رسمياً فيها . وكاد يحرم على المبشرين النصارى مزاولة أعمالهم . كما أصبح اليوم أكثر من ٩٠ ٪ من الهوسا مسلمين . وأكثر من ٨٥ ٪ من سكان إيلورين مسلمين (١٩٥٤) .

وهكذا ترى رايات الإسلام تعلو مبانى الجمعيات والمدارس والمعاهد الإسلامية فى غالبية مدن غرب أفريقيا ، من ليبيريا إلى كامرون وأفريقيا الاستوائية وتشاد .

واليوم إذا نظرنا إلى مسلمى أفريقيا المدارية فى جنوب الصحراء (وليست العربية) كان من الصعب أن نذكر تقديراً دقيقاً لهم ، ومع ذلك نستطيع القول بأن عدد المسلمين فى أفريقيا (عرباً وزنوجاً) فى الوقت الحاضر يصل إلى قرابة مائة وثلاثين مليوناً . نصفهم تقريباً من شمال الصحارى والنصف الثانى جنوبها . بينما عدد سكان أفريقيا (عام ١٩٦٤) قرابة ٢٩٥ مليوناً فى تقديرات الأمم المتحدة . وبهذا تصل النسبة المئوية للمسلمين فى أفريقيا إلى قرابة ٥٥٪ ويمثلون فيها أكبر كتلة بشرية متماسكة يحيطون الصحارى الكبرى ويشرفون على البحر المتوسط والأحمر والمحيط الهندى والأطلسى ، ويتوغلون فى قلب أفريقيا بدرجات متفاوتة .

طرق انتشار الإسلام :

وموجز القول ، فقد تسرب الإسلام إلى أفريقيا عبر عدة طرق ؛ أهمها :

١ - طريق سيناء وبرزخ السويس ومنهما تدفقت القبائل العربية والإسلامية فلم يلبث أن غمر الإسلام مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب . واشترك

أهالى تلك البلاد مع العرب فى نشر الدين الحنيف على طول الساحل الأفريقى وشمال الصحراء الكبرى ، ثم أخذ ينتقل بمحاذاة الساحل الأطلسى حتى وصل إلى ضفاف نهر سنغال عن طريق موريتانيا .

٢ - طريق المغرب عبر السنغال إلى نهر النيجر لنشر الدعوة بين قبائل غرب أفريقيا ، وقد سلكها التجار وتبعهم المرابطون الذين بفضلهم استقر الإسلام بين سكان المدن الصغيرة ثم انتشر بين القبائل السودانية فى غرب أفريقيا .

٣ - طريق بحرى يشتمل على البحر الأحمر وخليج عدن والمحيط الهندى بواسطة التجار العرب القادمين من الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة العربية . وبفضل هؤلاء وصل الإسلام إلى شرق أفريقيا : أرتيريا والحبشة والصومال وإلى زنجبار إلى بعض المستوطنات (Settlements)على ساحل شرق أفريقيا ومن ثم تأسست عدة دول من العرب والفرس والزنوج على هذا الساحل . وشيدت عدة مدن هامة ، استمتعت بحضارة مزدهرة حتى طغى عليها الاستعمار البرتغالى فى نهاية القرن الخامس عشر .

٤ - عدة طرق صحراوية ، كانت تعبرها القوافل من مصر مارة بالواحات الغربية . ومن وسط السودان الشرقى إلى تشاد وبرنو . ومن ليبيا وتونس والجزائر إلى نهر النيجر فى قلب أفريقيا للاتصال بقبائل الهوسا وقبائل الفولة . ومن جنوب مراكش إلى نهر سنغال ومنحنى نهر النيجر .

منابع الدعوة الإسلامية :

كانت منابع الدعوة الإسلامية فى ذلك الحين تنبثق من :

(ا) الأزهر الشريف بالقاهرة بعد قيام دولة الفاطميين فى مصر فى القرن العاشر .

(ب) جوامع القيروان والزيتونة وغيرهما بتونس وبعض الزوايا فى ليبيا .

(ﺟ) زوايا الطوائف الدينيـــة فى الجزائر والمغرب ولا سيما فى فاس ومراكش وغدامس .

(د) المعاهد الدينية التى أنشئت فى تمبكتو وجاغ وبرنو فى غرب أفريقيا .

التوزيع الجغرافى للمسلمين فى أفريقيا :

يمكن توزيع المسلمين بصفة عامة فى أفريقيا على الوجه الآتى :

١ — مصر والسودان فى الشمال الشرقى .
٢ — بلاد المغرب فى الشمال بما فيها ليبيا .
٣ — غرب النطاق الإفريقى .
٤ — وسط النطاق الأفريقى .
٥ — شرق النطاق الإفريقى .
٦ — أريتريا وإثيوبيا وصوماليا .
٧ — ساحل الشرق الإفريقى (السواحيلى) .

مراحل إنتشار الإسلام

٢ — شرق أفريقيا

جاء الإسلام إلى غرب أفريقيا براً بواسطة الفتوح العربية وقوافل التجارة . أما فى شرق أفريقيا فقد جاءها بحراً بواسطة اللاجئين السياسيين فى هجرات متتالية ومع التجار البحريين عبر البحر الأحمر والخليج العربى والمحيط الهندى .

ففى أيام الاسلام الاولى ، قصد جماعات من العرب وهم يبحثون عن العمل فعبروا البحر الأحمر . للعمل فى مناجم الصحراء الشرقية ثم استوطنوها ونشروا دينهم . وجاءت أيضاً جماعات أخرى من جنوب غرب شبه الجزيرة العربية واليمن يبحثون عن التجارة والرزق فى الجزر القريبة من ساحل الحبشة والصومال واستوطنوا بعض بقاعها . ونلاحظ أن هؤلاء لم يتجاوزوا المناطق الساحلية ولم يتجهوا إلى داخل القارة بل اقتصر استيطانهم مناطق كثيرة تجاوزت

جنوب الصومال . ولم يحدث أى اختراق إسلامى فى قلب القارة على نطاق كبير إلا فى القرن التاسع عشر .

ويمكن تقسيم انتشار الاسلام فى شرق القارة الأفريقية إلى مرحلتين رئيسيتين :

المرحلة الأولى :

بدأت هذه المرحلة منذ القرن السابع الميلادى حينما فتح العرب بقيادة عمرو ابن العاص مصر فيما بين ٦٣٩ و ٦٤٢ ميلادية ، وحينما حاول إلحاق النوبة بالولاية المصرية ، ومن بعدها تعاقبت الهجرات العربية المتتالية واستوطن أفرادها أماكن كثيرة فى الجزر الساحلية ومناطق أخرى آمنة عند الساحل الأفريقى الشرقى . ويمكن القول بأن هذه المرحلة انتهت فى نهاية القرن الثامن عشر ، وتضم فترة الاستعمار البرتغالى معظم أنحاء الشريط الأفريقى الشرقى .

أما المرحلة الثانية لانتشار الاسلام من الشريط الساحلى إلى داخل البلاد الأفريقية ، فتبدأ من القرن التاسع عشر بواسطة التجار والعمال المسلمين الذين اجتذبهم الأوربيون لتنفيذ المشروعات الجديدة ومنهم أسيويون كثيرون .

وهكذا نلاحظ اختلافاً شاسعاً بين أسلوبى انتشار الاسلام فى شرق أفريقيا وفى غربها .

النوبة وشمال السودان :

بعد أن استتب الأمر لعمرو بن العاص فى مصر ، أرسل عبد الله بن أبى السرح لغزو بلاد النوبة عام ٢١ هـ - ٦٤١ ، فحاربهم وهزمهم وقرر عليهم الجزية ولم يتعرض لنصرانيتهم ، وفى عام ٣١ هـ - ٦٥١ م غزاهم عبد الله بن أبى السرح فى خلافة عثمان بن عفان لثانى مرة وهزمهم ثم كتب لهم عهداً جاء فيه : « وعليكم حفظ المسجد الذى بناه المسلمون بفناء مدينتكم (دنقله) ولا تمنعوا منه مصلياً وليا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من المسيح وذمة الحواريين

وذمة من تنظمونه من أهل عينكم وملتكم ، ولكن هذا العهد كان ينقض بين حين وآخر ، فينشب القتال بين المسلمين وأهل النوبة (١).

وفى أواخر أيام الأمويين أصبح السودان ملاذاً يلجأ إليه المضطهدون من بطش الحكام، وكان من هؤلاء آل العمر بن زيد بن عبد الله بن مروان الذين فروا إلى الحبشة أولا ، ثم قصدوا جبال الفونج حيث تسموا باسمها واستولوا على عرش السلطنة التى ظلت تبسط نفوذها على بقاع فسيحة فى السودان مدة تجاوزت ثلاثة قرون (١٥٠٠ — ١٨٢٠) (٢).

بقى النوبيون مسيحيين إلى القرن الثالث عشر واحتفظوا باستقلالهم على الرغم من الحملات التى كانت ترسلها مصر، وفى عام ١٣٨٥ استطاع ابن أخى ملك النوبة فى ذلك الحين ، أن يظفر من سلطان مصر بمعاونة عسكرية تشد أزره فى الثورة التى أعلنها على عمه ، فاستطاع أن يعزله . ولم يكن لتلك المعاونة أثر يذكر فى تحويل النوبيين عن المسيحية ، ولكن العرب كانوا قد استقروا على ضفاف النيل الأزرق والنوبة وزادت ثروتهم حتى أنهم استطاعوا أن يلتمسوا الإذن ببناء مسجد فى سوبا عاصمة المملكة المسيحية .

وفى أخريات القرن ١٣ أخذ العرب يندمجون عن طريق المصاهرة فى النوبة ، ولا سيما قبيلة جهينة . فقد تزوجوا من نساء هذه البلاد ، ونجحوا تدريجياً فى كسر شوكة النوبيين . وفى أيام الملك الناصر محمد (أوائل القرن ١٤) ، اعتنق ملك مدينة دنقلة الإسلام ويبدو أن المملكة النوبية المسيحية كان قد كتب لها الزوال لظهور الانقسامات الداخلية ولهجمات القبائل العربية والأفريقية التى كانت تغير

---

(١) نقض أحمد بن طولون هذا العهد فى سنة ٨٩٦ م فأرسل حملة عسكرية إلى النوبة .

(٢) بينما كان يحدث هذا بين الشمال (مصر) والنوبة ، كان هناك تسلل إسلامى عربى عن طريق ثغور البحر الأحمر ، وآخر عن طريق دارفور ولكن لاشك أن أن التسلل الشمالى كان أقوى .

على حدود المملكة . ثم كان أهم العوامل ، وذلك قيام دولة الفونج ، ومنذ بداية ذلك الحين إنساق النوبيون إلى الإسلام .

الحبشة (إثيوبيا) :

نشأت العلاقة بين شبه الجزيرة العربية وشرق أفريقيا منذ قبل الإسلام : وقام معظم تلك العلاقات على تبادل التجارة ، وقد جاء المسلمون العرب إلى الحبشة لما اشتد إيذاء قبيلة قريش للرسول فى مكة واعتداؤها فاضطرت جماعة منهم إلى الهجرة إلى الحبشة والاستقرار فيها بعد مالقوه من حسن استقبال النجاشى وامتناعه عن ردهم إلى قريش ، ومع ذلك فإن الإسلام لم يستوطن بلاد الحبشة إلا بعد القرن العاشر .

وعندما نشأ الخلاف بين سادة العرب حول منصب الخلافة ، ولا سيما فى أعقاب مقتل الخليفة عثمان بن عفان ، وتولية على بن أبى طالب الخلافة ؛ انقسم المسلمون إلى شيع كثيرة ونشبت المعارك بين الأحزاب المختلفة ، كل منهم ينتصر لمبدئه ثم اشتد الخلاف على أثر قيام الأمويين فى دمشق ؛ بينهم وبين آل على ومناصريهم وأصبح النضال مريراً ؛ ومن أجل ذلك لجأت جماعات من المتشيعين إلى الفرار والهجرة من المواطن العربية إلى شرق أفريقيا ، وكان المهاجرون من العرب والفرس على السواء ، ولما وصلوا إلى الساحل الأفريقى أقاموا مستوطنات صغيرة لهم ، وأخذوا يعملون فى التجارة والزراعة .

الصومال وبقية الساحل الشرقى الأفريقى :

تتابعت الهجرات العربية إلى شرق أفريقيا عن طريق المحيط الهندى ؛ أهمها .

١ ــ هجرة سليمان وسعيد ابنى عباد الجلندى . (بين عامى ٧٠ - ٧٠٤) وكانا يحكمان عمان .

٢ ــ هجرة الزيديين (حوالى ٧٥٥ - ٧٦٠) ثم هجرة بنى نبهان من عمان .

٣ ــ هجرة الأخوة السبعة من الأحساء (بعد ٩٠٣ / ٩٢٤) .

٤ — هجر حسن بن على وأبنائه الستة (ح ٩٧٥) ، وتعتبر هذه الهجرة من أكبرها . فقد وصل أفرادها فى سبع سفن ونزلوا فى عدة أماكن على الشاطىء الشرقى : واحدة منها فى منبسة ، وثانية فى بمبا ، وثالثة فى كاوه، وهى التى كان عليها حسن ، ورابعة فى جوهانا .

وعلى أثر وصول تلك الجماعات بدأ الأهالى من الأفريقيين الأصليين يدخلون تدريجياً فى الإسلام واستوطن العرب أقليم سفالة جنوب موزمبيق بين عامى ٥١٠ ، ١٢٢٩ م ، وانتشر هؤلاء فى الجزر المجـــاورة ، ولاسيما فى مدغشقر ، وعلى مر الأيام أوغل عرب الشاطىء فى أنحاء المناطق الأفريقية المحازية للشاطىء ، بل وشقوا سبيلهم إلى شمال بلاد الحبشة .

وفيما بين عامى ٩٧٥ ومجىء البرتغاليين (١٤٩٧) وهى حوالى خمسمائة عام نهضت عدة دويلات إسلامية زنجية وعربية وشيرازية كانت تعتمد على التجارة ، وفى زمن من الأزمان كانت كاوه أهمها .

وفى ساحل الصومال الشمالى المقابل لليمن وحضرموت نشأت أول دويلة إسلامية فى الحبشة وأخذ نفوذها فى الامتداد، حتى إذا جاء القرن الرابع عشر كان قد تم لهذه الدويلات أو الإمارات أن تقف على قدميها وسميت « الطراز الإسلامى » ، وهذه الإمارات هى :

أفات ، ودارو ، وأريبنى ، وهديا ، وشرخا ، وبالى ، ودارا ، وقد تكلم عنها شهاب الدين العمرى فى مؤلفه « مسالك الأبصار » ، ونقل عنه القلقشندى فى كتابه المعروف « صبح الأعشى »(١).

ومع ذلك ، وبعد مرور مئات السنين ، لم تتحد هذه الإمارات (دول الزنج فى مجموعها) مع بعضها ، ولم تندمج فى دولة كبرى ، ولذلك تيسر للبرتغاليين

(١) الجزء الخامس : ص ٣٢٥ — ٣٣١

فى نهاية القرن الخامس عشر أن يتغلبوا عليها ، الواحدة بعد الأخرى ، واحتلت معظمها فى القرن السادس عشر .

كان شرق أفريقيا فى زمن الاستعمار البرتغالى ، ثم طرد البرتغاليين من معظم المستوطنات والإمارات العربية بفضل سلاطين عمان ، وإعادتها إلى أحضان العروبة . . جميع تلك الأحداث ، إلى جانب تنافر مصالح الحكام من السكان العرب والشيرازيين والسواحليين ، فضلا عما آلت إليه تجارة الرقيق وماسبقته من المظالم وإراقة الدماء وفرار الأهالى إلى الداخل هرباً من البطش بهم ، غير سير التاريخ فى تلك المنطقة ، فلو أنه كانت هناك دولة عربية قوية موحدة ذات سيادة وسلطان ، لاستطاعت أن تقف فى وجه المستعمرين الأوربيين الجدد ، من ألمان وإيطاليين وانجليز وبرتغاليين وغيرهم ، ولكن عوضاً عن ذلك ، فقد جاء إليها هؤلاء وتمكنوا بدهائهم وقوتهم وحيلهم من وضع أيديهم على شرقى أفريقيا وجميع الجزر الملاصقة للساحل .

وهنا تبدأ المرحلة الثانية من إنتشار الإسلام إلى قلب أفريقيا منذ القرن التاسع عشر كما ذكرنا فى مستهل هذا الحديث ، فإنه بعد القضاء على تجارة الرقيق التى ازدهرت عدة قرون وتأسيس الحكم الأوربى ، أخذت رياح التغيير تهب على القارة ، وبدأ الإسلام ينتشر فى سرعة من الساحل الشرقى ، بادىء ذى بدء بين القبائل الأكثر قرباً من الساحل حيث كان قد مهد له من قبل ، وكذلك من المراكز التجارية الداخلية . كان انتشاره الأساسى فى تنجانيقا ثم واصل انتشاره فى أعداد تتفاوت حجماً حتى نهاية القرن التاسع عشر ، ومع ذلك فكانت تقديرات الألمان (وهم أصحاب النفوذ فى تنجانيقا) لنسبة عدد المسلمين من السكان خلال عام ١٩١٣ — ٣٪ فقط ثم زادت خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٨) وفى الأعوام الأولى من وضع البلاد تحت الوصاية البريطانية وبعدها فى عام ١٩٥٣ وصلت إلى ٢٧٪ من عدد السكان يقابلها ١٨٪ من المسيحيين ، فإذا كانت هذه التقديرات صحيحة . فإنه يبدو أن انتشار الاسلام

فى المناطق القريبة من الساحل كان سريعاً جداً ، والدليل على ذلك اعتناق جميع سكان منطقة روفيجى Rufigi الدين الحنيف فى عام ١٩١٣ ، وكان الذى حدث أن قبائل كاملة كانت تعتنق الاسلام وليس أفراداً أفرادا ، فهم قبائل من البانتو ممن تأخر إسلامهم عن الصوماليين الحاميين وقبائل الجالا فى الشمال ويضم هؤلاء البانتو قبائل ديجو وروفيجى وزرامو وياو Yao ، وكان هؤلاء الياو قد زاولوا التجارة منذ زمن بين الساحل من كلوة إلى موزمبيق على الساحل إلى داخل أفريقيا وقد قاموا كوسطاء مع التجار العرب ، ومع مرور الزمن فقد الياو روحهم القبلية وأصبحوا سواحليين ثم صاروا مسلمين منذ نهاية القرن التاسع عشر وأوائل العشرين . وسرعان ما أنشئت الكتاتيب والمدارس لتحفيظ القرآن الكريم فى القرى فى موازاة الطرق الداخلية وأصبح لديهم فقهاؤهم الياويون (وليسوا سواحليين) .

الفصل الثانى

غانة (٣٠٠ م – ١٢٤٠)

غانة فى مؤلفات العرب :

يرجع أول نص عربى صريح عن السودان الغربى إلى المؤرخ المصرى ابن عبد الحكم (٨٠٣ - ٨٧٠)، عندما تحدث عن الحملة التى جردت إلى السوس جنوب المغرب والسودان سنة ٧٣٤ م ، فقال : « وغزا عبيد الله ابن عبيدة الفهرى السوس وأرض السودان ، فظفر بهما ظفراً لم ير مثله من ذهب ، وكان فيما أصاب جارية أو جاريتان من جنس تسميه البربر « أجان »[1].

وفى أقل من عشرين سنة بعد ذلك نظم عبدالرحمن بن حبيب طريق القوافل بين جنوبى المغرب الأقصى وأودغشت على حافة الصحراء الجنوبية وذلك بأن حفر عدة آبار مياه جديدة[2]، وقد تكلم عن هذا الطريق مؤلف كتاب الاستبصار حوالى ١١٩٢ ، قائلا : إنه يخرج من نهر درعة إلى غانة . وكان أول من ذكر غانة من العرب : الفزارى الفلكى الذى ذكر قبيل عام ٨٠٠ م عدة بلاد أفريقية منها إقليم بلاد التبر ، ثم الخوارزمى الجغرافى قبيل عام ٨٣٣ م الذى حدد موقع غانة فى خريطته التى نقلهـا عن بطليموس (٣) . وذكر اليعقوبى الجغرافى

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح أفريقية والأندلس ، نشر النص العربى والترجمة الفرنسية ألبرت جانو عام ١٩١٨ ص ١٢٢ .

(٢) أبو عبيد البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، طبعة عام ١٩١٣ ص ٢٩٦ – ٢٩٨ .

(٣) يوسف كمال : الأطلس الجغرافى الكبير جـ ٣ لوحة ٢ ص ٥١٠ عام ١٩٣٠ ، ص ٤٠٤٫ جـ ٤ ص ٤١٠ .

(عام ٨٧٢) « ملك غانة عظيم وفى أرضه معادن التبر ، وهو صاحب عدة ممالك كثيرة » . ثم كتب ابن حوقل الجغرافى (ح ٩٧٧) - وكان قد زار أودغشت - فقال : إن لملوك هذه المدينة صلات بملك غانة أغنى ممالك العالم لذهبها . ثم جاء البكرى (١٠٦٧ م) فزودنا بأرقى المراجع عن السودان الغربى فى العصور الوسطى ، فذكر موقع غانة ووصف أحوال الشعب وملوكها (١) .

أما ابن بطوطة الرحالة المغربى (حوالى ١٣٥٣/٥٤) فقدكان ثانى المؤلفين العرب الذين زاروا السودان الغربى ، وكان أولهم ابن حوقل ، ونلاحظ أن ابن بطوطة لم يذكر غانة لأنها لم تكن قائمة كدولة كبرى فى أثناء رحلته ، ولكنه وصف أحوال وعادات الشعب الذى كان يسكن أرضها .

وهناك اثنان من المؤرخين السودانيين ، كتبا عن تاريخ بلادهم بعد مؤرخى العرب ، وقد زودانا بمعلومات طيبة وفيرة عن دول غانة ومالى وسنغاى أولهما محمود كعت الذى كتب « تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ، فيما بين ١٥١٩ و ١٦٦٥ (٢) ، وثانيهما عبد الرحمن السعدى قبيل عام ١٦٥٥ وقد ألف تاريخ السودان الذى يعتبر من المراجع الأصلية (٣) .

اقتبست « غانة » اسمها من المدينة التى كانت حاضرة الدولة قبل أن تصبح إمبراطورية . وتتفق كلمة المؤرخين على أن مملكة غانة تأسست حوالى عام ٣٠٠ م ، ثم نمت واتسعت رقعتها . فامتدت من نهر نيجر إلى ساحل الأطلنطى غرباً وشمالا عند حافة الصحراء الكبرى . وكانت تشغل فى مراحلها الأولى أراضى البلاد التى كانت تعرف باسم السودان الفرنسى (جمهورية مالى اليوم) .

---

(١) البكرى : المرجع المذكور فى ص ٣٢٧ - ٣٣١ .

(٢) نشره وترجمه المستشرقان هوداس وديلافوس ، باريس ١٩١٣ ، وقد أعيد نشره عام ١٩٦٤ .

(٣) نشره وعلق عليه المستشرق هوداس ، باريس ١٨٩٨ .

ثم تحولت « غانة » على مر الزمن من مملكة إلى إمبراطورية ، قبل ازدهار دولة المرابطين بمائة سنة تقريباً ، حتى بلغت أسمى مكانة فى تاريخها خلال السنوات الخمسين التى سبقت عصر المرابطين الذهبى .

ولقد استطاع شعب غانه أن يقيم دولته الفتية ، ولا يدل هذا الاسم على الشعب ، ولكنه أطلق على الطبقة الحاكمة أحياناً ، أو على الحاضرة كما ذكرنا ، وكان أول ملوكهم « كاز » فاتخذ قرب « تنبكيت » عاصمة له وتمكنت هذه الدولة - أو بعبارة صحيحة الأسرة الأولى التى تألفت من أربعة وأربعين ملكا فى المدة الممتدة من القرن الرابع حتى القرن الثامن الميلادى - أن تبسط حكمها بين أوكار وحوض الصحراء الكبرى ، واستطاع فى آخر هذا القرن أحد شعوب الماندى ، وهو السوننكة ، أن يرث دولة غانة واستولى على الحكم سنة ٧٧٠ م .

ويمدنا الإدريسى الجغرافى العربى بصورة لمجتمع غانة وأسلوب معيشة الشعب وحكامه ، إذ قال : إن عمارة القصر الملكى كانت تزينها التماثيل والرسوم المنقوشة ولوحات الصور وتتخللها النوافذ الزجاجية .

كما يصف « محمود كعت » مؤلف تاريخ الفتاش جانباً واحداً من البذخ الذى كان يتسم به بلاط كانيسا أى أحد ملوك غانة فى نهاية القرن السابع ، فيقول فى وصف الاسطبلات الملكية :

« لم يكن هناك جواد واحد من جياد الملك الألف لاينام إلا إذا فرشت تحته طنفسة ، وكانت الجياد توثق برباط من الحرير المجدول حول العنق وفى القدمين ، وكان لكل جواد ثلاثة أشخاص لخدمته يأخذون أماكنهم فى جواره ، ويعنى أحدهم بطعامه ، وثانيهم بسقيه ، وثالثهم بما يخرج منه » .

ويذكر مرة أخرى محمود كعت مؤرخ تاريخ الفتاش أن الملك كان فى كل ليلة يجلس على عرش من الذهب الأحمر ، ويحيط به حاملو الشعلات النارية

على حين يشاهد عشرة آلاف من رعاياه. وهم يتناولون طعام العشاء من مطابخ القصر .

تلك هى إحدى صور البذخ التى كان يعيش فيها أباطرة غانة ، فقد كان الملك يتوسط دائماً أبهة بلاطه الرائع ، تلك الأبهة التى تعكس دون مبالغة بذخ دولته وفرط ثروتها . كان يتخذ مجلسه فى إيوان الملك ، وقد رصعت ملابسه بالجواهر ، ويضع على رأسه ما يشبه التاج الذهبى ، ويحف به طاقم من الجياد المطعمة بالحلى الذهبية ، ويقف خلفه عشرة من الغلمان الوصفاء يمسكون الدرقات والسيوف المذهبة ، وإلى اليمين يقف أبناء الأمراء التابعين لسلطانه وهم مرتدون الملابس الجميلة ، وقد رصعوا شعورهم برقائق الحلى ويجلس الوزراء أمام الملك ويقف حاكم المدينة عند قدميه ، وتحرس كلاب الصيد الإيوان الملكى ، وحول رقابها الأطواق والأجراس الذهبية والفضية وتلك كانت تتبع الملك دواماً أينما ذهب .

وكانت تقرع الطبول الملكية عند بداية أى حفل يشترك فيه الملك ، وكانت تعرف « بالدبسا » أما أتباعه الوثنيون فيركعون أمامه ثم يأخذون التراب من الأرض ويضعونه على رءوسهم ، ويبدى المسلمون من رعاياه الاحترام بالتصفيق له .

فإذا مات الملك وضعت جثته على الطنافس والوسائد تحت قبة من الخشب وتوضع الأثواب وألوان الطعام والشراب إلى جانبها ، وكان يدفن معه المقربون من الخدم والأتباع الذين يشرفون على خدمته الخاصة فى أثناء حياته ، ثم تغطى المقبرة بالحصير ، ويشترك الجمع المحتشد بإلقاء التراب على القبة حتى تصير كومة عالية ، ثم يحيطونها بخندق .

وقد احتوت الخزانة الملكية فى غانة على سبيكة ضخمة من الذهب كانت رمز الملكية ، اشتهر أمرها فى العالم المعروف إذ ذاك ، وقدر بعض الخبراء زنتها بثلاثين رطلا ، وذكر ابن خلدون أنه بعد أن سقطت مدينة غانة فى

قبضة المرابطين (١٠٧٦ م) وبعد ثلثمائة سنة بيعت تلك السبيكة إلى أحد التجار في مصر وقدر زنتها طناً .

وكانت صلات غانة التجارية مع العالم الخارجي من الأهمية بمكان ويرجع ذلك إلى توسط موقعها ، فقد كانت تشغل رقعة الأرض التي تقع عند الطرف الجنوبي لطريق القوافل الغربية عبر الصحراء الكبرى التي امتدت بين سجلماسة في بلاد المغرب مارة بتغازة التي اشتهرت بمناجم الملح .

وكانت غانة تستورد القماش والمنسوجات الحريرية والنحاس والملح وتصدر تراب الذهب وربما الجلود أيضاً .

ولم يكن معظم ذهب « غانة » يعثر عليه فيها ، لكن كانت « ونجارة » أهم المصادر التي أمدتها به ، وكان شعب الونجارة يقطن بقعة فسيحة امتدت ثلثمائة ميل طولا وخمسين عرضاً في جنوب منطقة نهر سنغال . وليس من اليسير أن تعرف بالدقة موقع الذهب في ديار « ونجارة » .

وقد ذكر بن حوقل الجغرافي العربي (حوالي عام ٩٧٠ م) أنه شاهد في « أودغشت » على حافة الصحراء (وكانت على مسيرة خمسة عشر يوماً إلى غربي مدينة غانة) صكا قيمته ٤٢٠٠٠ دينار كتب على ذمة تاجر في سجلماسة

مدينة غانة أو كومبي صالح .

ومدينة غانة أو « كومبي » كما أسماها شعب غانة هي عاصمة الإمبراطورية السوداء تألفت من قسمين هامين ، يقع كل قسم منهما على تل ، وتمتد نحو الوادي على رقعة سهل فسيحة ، وكان كل قسم يبعد عن الآخر نحو ٦ أميال يقطن المسلمون أحدهما ، ويسكن الوثنيون القسم الآخر ، وقد أطلق المسلمون على ذلك القسم « الغابة » ، لأن الأحراش كانت تحيط بها من كل جانب ، وهي موضع تقديس الأهالي ، وبها المقابر الملكية ، ويعيش الكهنة

والسحرة وعباد الأوثان فى الأحراش ، كما أقيم فيها سجن عتيد ليقضى فيه المحكوم عليهم بالموت أيامهم الأخيرة .

كان فى المدينة الإسلامية إثنا عشر مسجداً ، وقد عاش فيها كثير من العلماء ورجال الدين والأدب والطلاب وكانت اللغة العربية لغة التدريس ليس عند المسلمين فحسب ، بل فى جميع أنحاء الامبراطورية .

وكان فى المدينة الوثنية مسجد واحد يؤدى فيه ضيوف الملك من المسلمين الصلاة ، يقع إلى جوار دار القضاء .

كان يشغل مناصب الدولة المسلمون والوثنيون على السواء ، ويذكر المؤرخ أبو عبيد البكرى أن غالبية الوزراء كانوا من المسلمين ، وأن القائم بشئون الترجمة فى بلاط الملك ووزير الخزانة كانا من المسلمين أيضاً .

كان قسما المدينة « أى كومبى » مشيدين بعناية ، بنى بعض دورها بالحجارة وبعضها باللبن .

وقد ذكر ابن خلدون أن عدد سكانها كان كبيراً وأنها ـ أى المدينة ـ كانت من أكبر مدن العالم وأكثرها ازدحاماً بالسكان ، وكان أهلها يرتدون الملابس الصوفية والقطنية والحريرية والمخملة ، كما ازدهرت فيها صناعات نسج الأقشة ، وزراعة التمر ، وصناعة النحاس والأحجار الكريمة والدروع والأسلحة المطعمة بالذهب والفضة .

وقد استمد المؤرخ البكرى وصف كومبى حاضرة غانة من المعلومات التى كان يحصل عليها من تجار البربر الذين عرفوا المدينة جيداً ، وتتحدث معظم هذه المعلومات عن رخاء كومبى ونشاطها التجارى وروعة القصر الملكى .

تلك هى نظرة شاملة لما كانت عليه أحوال غانة ومجتمعها فى الشطر الأول من تاريخها الوسيط ، ونتنقل الآن إلى التحدث عن تاريخها وأهم الأحداث التى مرت بتلك الإمبراطورية السوداء .

الطوارق (الملثمون) :

كان لإسلام قبائل الطوارق (الملثمين) فى القرن التاسع الميلادى أثر فى تطور الأحداث الهامة فى المغرب الأفريقى والسودان ، ولا سيما بعد أن قام حلف لجمع شمل الملثمين بزعامة اللموتى « تيولان بن تيكلان » الذى اعتنق الإسلام ، وكان من أهداف الحلف ، التوسع نحو الجنوب لنشر الإسلام بين القبائل الزنجية بالسودان الغربى ، ولذلك كان لا بد أن يصطدموا بغانة التى كانت قد وصلت إذ ذاك إلى أوج مجدها وتوسعها ، حتى لقد وصفها ابن خلدون بقوله : « كانوا أعظم أمة وأضخم ملك(١) » ، وامتدت منطقة نفوذهم من ثنية نهر نيجر جنوبا حتى مدينة أركى فى الشمال ، وتقع على مسيرة سبعة أيام من مضارب قبيلة لمتونة غرب وادى نون ، ولكن كان من حسن طالع حلف الملثمين الصنهاجى أن دبت عوامل الضعف فى هذه الدولة الزنجية الكبيرة فى ذلك الوقت بالذات .

ولقد زحف الملثمون بجيوشهم حتى استولوا على أودغشت واتخذوها حاضرة لهم ، وفرضوا الجزية على المغلوبين ، وقد انتهز شعب صوصو فرصة هذا الإعتداء على جارته غانه ، فضربها من الجنوب .

ثم تفككت روابط الحلف بين قبائل الملثمين عام ٣٠٦ هـ (٩١٨ م) فانتهزت غانة أحوال تفرق الحلف وبسطت ظلها على ما حول مدينة أودغشت مرة أخرى ، ولكنها لم تستطع استرداد أملاكها السابقة بعد استقرار الملثمين فيها . ويبدو أن غانة قنعت بالسيطرة على أودغشت ، لأن ذلك معناه التحكم فى طريق التجارة بين بلاد السودان وسجلماسة والمغرب وفى ذلك ربح طائل لاقتصادياتها ، ومن ثم وقفت غانة ثانية على قدميها طوال السنوات الخمسين التالية قوة عظيمة فى السودان الغربى .

---

(١) ابن خلدون : « العبر » جـ ٦ ص ١٩٩ .

لعل أهم آثار الاحتكاك أن تسرب الاسلام الى غانة للمرة الأولى ، بفضل ماخلقته العلاقات التجارية بين بربر الشمال وزنوج السودان .

ثم بدت عوامل جديدة أثرت على العلاقات بين قبائل الملثمين ، فاتفقت كلمتهم على إعادة الوحدة والحلف مرة ثانية ، فكروا على غانة ثانية واستولوا على أودغشت ، ويحتمل أن يكون ذلك قد تم حوالى عام ٣٥٠ هـ (٩٦٠ م) فإن الرحالة ابن حوقل (المسالك ص ٧١) طوف بديار الملثمين فى ذلك الوقت تقريباً ، ودخل أودغشت ، ووصف قوة ذلك الحلف الجديد .

عادت صنهاجة لبسط ظلها من جديد على الديار الممتدة من جبال درن فى الشمال إلى ثنية النيجر فى الجنوب ، ولم تهدأ ثائرة النضال، واستردت أودغشت وتفرقت كلمة الملثمين ؛ وعمتهم الفرقة من جديد فى أوائل القرن العاشر ، وانتظروا فرصة مقبلة .

ولم تنته أحداث الملثمين عند هذا الحـــد . كانت المعارك الأولى نقطة البداية ، حتى انطلقت دعوة دينية انبثقت فى صفوفهم. تلك الدعوة التى وحدت صفوفهم وأذكت فى نفوسهم الرغبة فى الجهاد .

قبل أن نتحدث عن آثار تلك الدعوة فى مهاجمة غانة نقول : إن قبائل صنهاجة فى الجنوب لم تستطع العيش فى ظل الفرقة بين قبائلها ، فقد كانت أحلاف زناتة والمصامدة فى الشمال لاتزال تسد مسالك المغرب والمحيط وكانت غانة تهدد تجارة السودان؛ وهى مصدر رزق لقبائل صنهاجة الضاربة فى الصحراء فكان لزاماً أن يتحدوا ليقووا ، وقد تم فعلا نوع من التحالف بين قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة ، بفضل الجهود التى بذلتها لمتونة(١) .

ويبدو أن أهداف هذا الحلف الجديد كانت الهجوم على ملك غانة ،

(١) الدكتور حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ١٠١ .

والسيطرة على طريق التجارة ، واسترداد ما فقده الحلف من مصالح تجارية وربما كان هذا الحلف قد تم حوالى عام ٤٢٤ هـ (١٠٣٢ م) بزعامة أبى عبد الله بن تارشت اللمتونى [1] .

ولكن لم يكتب لهذا الحلف أن تطول مدته فقد قتل زعيمه وهو يقاتل ملك غانه ، وهزمت لمتونة وأخفقت فى استعادة أودغشت والسيطرة على مصادر ثروة السودان [2] .

وكان من نتائج تلك الهزيمة أن تخلت لمتونة عن زعامة قبائل الملثمين ، ويرجع بعض أسباب هزيمتها إلى أن مضارب رجالها كانت فى أقاصى الشمال غرب حدود المغرب الأقصى ، وكان انتقالها إلى الجنوب وتخطيها حوض نهر سنغال للهجوم على السودان يتطلب الجهود والاموال ، فلم تستطع أن تمضى فى هذا الجهاز حتى تبلغ هدفه .

وآلت زعامة الملثمين إلى قبيلة (جدالة) فأسرعت إلى المعركة التى كانت لا تزال مستمرة إذ أنها لو تخلت عن القيادة لانتهت قوة الملثمين ، وعادت ثمانة تتسرب إلى الشمال ، وتقضى على الجهود التى بذلت فى نشر الإسلام ، وكانت جدالة أقدر على كفاح السودان لقرب ديارها من مملكة غانه ، وأعرف بأحوال البلاد وطباع أهلها . ولغناها أيضا ، وكان (زعيم) جدالة فى ذلك الوقت يحيى بن ابراهيم الذى كانت تربطه بأبى عبد الله صلة القرابة .

عبد الله بن يس

فى يوم من الأيام كان الزعيم الطارقى يحيى بن ابراهيم ماراً بالقيروان

(١) القلقشندى «صبح الأعشى» جـ ٥ ص ٨٩ .

(٢) البكرى «المغرب» ص ١٧٥ .

عقب عودته من تأديته فريضة الحج ، فالتقى بابن عمران الفقيه الفاسى الذى دهش حينما علم بجهل يحيى وأتباعه بشئون الإسلام ، فلمس حاجتهم إلى من يثقفهم ويهديهم إلى السبيل المستقيم ، ورأى أن يبحث عن مرشد صالح ليمكن الإسلام القويم فى نفوس رجال يحيى ، فوقع اختياره (١) بعد زمن على عبد الله بن يس السجلماسى ، وكان من آثار هذا الاختيار الموافق ابتــداء الامتداد لنفوذ مذهب مالك من القيروان إلى المغرب الأقصى ، وتخطيه تخوم هذه الديار نحو الجنوب وانتشاره فيما بعد فى بلاد السودان الغربى .

رحل ابن يس وأخذ يمهد للوحدة السياسية إلى جانب التمسك بأهداف الإسلام ، لكنه لم يوفق كما أراد ، فاتبع طريقة أخرى .

رأى أن يهاجر نحو الجنوب مع بعض رفاقه إلى جزيرة تقع عند مصب نهر سنغال الأدنى ، واتبع حياة التصوف والزهد والمرابطة ، وبدأ الناس يجتمعون حوله وينتمون لرباطه ، واتخذوا اسم المرابطين . والحق يقال أنه وقع على كاهل ابن يس أن ينشىء جيلا جديدا من المسلمين ، ويهيئهم للون من حياة الجهاد ، ويعدهم للقتال ويغرس فى صدورهم فى الوقت نفسه مبادىء الإسلام الصحيح . حتى إذا ما زاد عدد أنصاره من هؤلاء المرابطين خرج من رباطه ليحقق أهداف السياسة التى رسمها ، وسار على رأس مجاهديه الشبان إلى السودان ، فاتجه إلى الشرق نحو ثنية النيجر ، ودخل مدينة أودغشت عام ١٠٥٤ . وانتزعها من ملك غانة الذى كان قد استردها من الملثمين بعد سقوط الحلف الصنهاجى — ثم حمل أهل غانة على اعتناق الإسلام فدانت به غالبيتهم .

كانت المعارك بين الجانبين مريرة حقاً . هذا يدافع عن عقيدته ، وذاك يدافع عن أرضه .. وفقد فى هذه المعارك مئات القتلى .

(١) دله ابن عمران أولا على تلميذه وحاج بن زللوى اللمتونى فقيــه السوس ، وهذا أرشد إلى تلميذه الصنهاجى عبد الله بن يس السجلماسى .

واستشهد فى احدى المعارك يحى بن عمر (١٠٥٦) ثم أوغل المرابطون فى تقدمهم إلى الجنوب ، وحالفوا زعيم التكرور فخاض غمار الحرب إلى جانبهم .

كان من نتائج هذا النجاح أن انضمت قبيلة لمتونة إلى المرابطين ، ثم عاد عبد الله بن يس إلى الشمال ووحد عدة قبائل أخرى انضمت تحت زعامته .

سوف لا نذكر هنا أعمال ابن يس وأتباعه فى المغرب الأقصى بعد انتصاراته . فهى كثيرة ومتشعبة ، ومما يؤسف له أنه مات فى أشد اللحظات حرجا . إذ استشهد فى قتال برغواطة عام (١٠٥٧م) ، وبموته فقد المسلمون زعيما ومجاهداً أفريقيا من كبار المناضلين فى نشر الدعوة ، فقد أقام دولة واحدة تحت لواء المرابطين والأقاليم الشمالية الخصبة التى تضم السوس وأغمات وسجلماسة وتوابعها ، وفضلا عن ذلك كان قد انتهى من دعم أسس ثابتة لإمبراطورية كبرى تقع حدودها فى خارج افريقية .

اختار المرابطون خليفة لابن يس ، ولم يعش طويلا ، آل الأمر إلى أبى بكر بن عمر الذى جعل مقر حكمه فى اغمات ، فى المكان الذى قامت عليه فيما بعد مراكش الحالية ، واستطاع أبو بكر بعد جهاد دام أكثر من خمس عشرة سنة أن يهزم مملكة السوننكة الخاضعين لغانه ، ويضم بلادهم إلى دولة المرابطين ، وانكمش سلطان غانه وتفككت ممالكها واستقلت بعض أقاليمها .

كانت غانه مع ذلك تنتهز الفرصة للانتقام من المرابطين . وتهدد طريق سيادتهم بين كل حين وآخر . أو ليست الصحراء ميداناً فسيحاً لقتال الكر والفر ؟ ولذلك كان القضاء على غانه هدف الجماعات المتحمسة بين المرابطين ، ولاسيما فى خطة أبى بكر حينما قلد قيادة الجيش الشمالى من قواته عام ١٠٦٣ إلى يوسف بن تاشفين ، وعاد إلى حرب الصحراء .

وجاء تنفيذ تلك الخطة بعد أربع عشرة سنة. فتمكن بمساعدة تكرور(١) من الاستيلاء على كومبي ؛ وفرض الإسلام على جميع البلاد وقد تم له هذا النصر على إمبراطورية غانه عام ١٠٧٦ م ، ومن ثم صارت إليه وإلى رجاله مواطن الذهب الغنية ، وهى أهم مصادر الثروة السودانية فى ذلك الحين .

نهاية امبراطورية غانه .

لم يكن لسقوط غانة الآثار البعيدة المدى المنتظرة التى كان يتوقعها الزعماء الأفريقيون فى ذلك الحين . ذلك أن انهيار المرابطين كان سريعاً فى الجنوب ، بل أسرع من نهايتهم فى الشمال ، فقد عادت من جديد الخلافات التى كانت دواما سبب ضعفهم وفشلهم ، وذلك لأن بعض قبائلهم — ومن بينها مسوفة ولمتونة — رفضتا العمل معا تحت زعامة لمتونة ، تلك القبيلة التى كانت بمثابة العمود الفقرى للمرابطين ، فى حين ظلت قبيلة جدالة واقفة بعيدة عنهما .

وآل الأمر إلى يوسف بن ناشفين بعد موت أبى بكر عام ١٠٨٧ م ، ولم يكن سيد شمال أفريقيا فحسب ، بل صاحب الكلمة فى الأندلس ، حينما انتصر على الملك ألفونسو السادس فى معركة الزلاقة (٢٣ أكتوبر سنة ١٠٧٦) .

وفى خلال عشرة أعوام بعد هزيمة غانة ، كان المرابطون قد أسسوا إمبراطورية امتدت من السنغال غربى أفريقية إلى نهر الإبرو فى الأندلس ، وقد دامت تلك الإمبراطورية حوالى مائة عام إلى أن قامت فى أعقابها دولة الموحدين .

---

(١) موطن قبائل التوكولور ، وتقع غربى غانه ، ويعرفون باسم التكارير. وكانوا يؤلفون شعبا تجاريا نشطاً أخضعتهم فى القرن الحادى عشر .

وفى أثناء تفكك المرابطين وانشغالهم بدولتهم فى الأندلس . استطاع السوننكة إحــدى ممالك غانه أن يستعيدوا استقلالهم ، ولكنهم كانوا كالمرابطين تعوزهم الوحدة وتسودهم الروح القبلية ، فإنهم لم يستفيدوا بمزايا الظروف والأحداث المعاصرة ، فساد الشقاق إلى صفوفهم ، ورغب كل اقليم فى أن يستقل ببلده ولم يعملوا فى سبيل وحدتهم للثبات فى وجه عدوهم المشترك فى الشمال .

وفى عام ١٢٠٣ م استولى سومانجرو . ملك الصوصو ، أقوى ممالك غانة على حاضرة البلاد ، وكانت عواقب هذا الاستيلاء خطيرة جداً كما سنرى ، كان من أهمها خروج بعض التجار المسلمين والسوننكة الأغنياء إلى الصحراء ، ثم شيدوا بلدة جديدة فى الصحراء تقع على بعد بضع مئات من الأميال إلى شمال كومبى (١) على قطعة من الأرض كانت تستخدمها القوافل ؛ كان اسمها ، ولاته ، ثم نمت البلدة على مر الأيام وأصبحت من أهم الأسواق فى الصحراء الكبرى ، أما كومبى فقد محى أثرها من التاريخ .

فى تلك الأيام كانت « مالى » الصغيرة دولة تمر فى مرحلة الانطلاق ؛ وخشى سومانجرو أن يعلو شأنها يوما من الأيام فتهدد دولته ، ولذلك قرر أن يضربها قبل أن تقوى عليه . فوجه ضربة نحو جيشها ، وانتصر عليه ، وأخرى نحو بيتها المالك فذبح أحد عشر شقيقا كان سيئول اليهم حــكم « مالى » ، ولم يذبح شقيقهم الثانى عشر لأنه كان كسيحا لا أمل فيه . ولم يكن هذا الشاب الكسيح سوى « سوندياته » ، الذى آل اليه حكم « مالى » فيما بعد وشيد امبراطوريتها ، وقضى على غانة قضاء تاما وضمها إلى ملكه .

(١) أشار أبو الفداء وابن خلدون فى القرن الرابع عشر إلى كومبى التى تبدو أنها كانت لا تزال باقية إلى ذلك التاريخ . ولا شك أنه التبس عليهما الأمر وخلطاها بولاته ، كما أثبت ذلك أحد الرواة الأجانب .

الفصل الثالث

مالى (١٢٣٨ – حوالى ١٤٨٨)

مالى فى مؤلفات العرب :

ربما يكون أبو عبيد الله البكرى (القرن الحادى عشر) أو جغرافيى العرب الذين ذكروا « مالى » وملكها المسلم فى مؤلفاتهم . ومع ذلك فإنه يلاحظ أنه ذكر « مالل » وليس مالى [1] . وقد رجع البكرى فيما كتبه إلى الإدريسى الجغرافى الأندلسى الذى توفى حوالى عام ٩٧٣ .

وذكر الإدريسى (حوالى ٥٤٩) مالى أيضاً . وقال إنها تقع فى بلاد لملم ، وكان ابن فضل الله العمرى أغزر الكتاب العرب الذين تناولوا مالى (١٣٤٢-٩) كتب عنها عدة صفحات فى كتابه المعروف (مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار) . وقد ذكر العمرى أن « مالى تعرف عند العامة بتكرور ، ويطلق على سلطانهم فى مصر سلطان التكرور ، والواقع أنه لو سمع هذا لأنف منه ، لأن التكرور إنما هو إقليم فى مملكته ، والأحب إليه أن يقال (صاحب مالى) لأنه الإقليم الأكبر ، وهو به أشهر وليس بمالى من يطلق عليه اسم ملك إلا صاحب غانة دون غيره ، لعدم انتزاعها منه والاستيلاء عليها استيلاء تاماً»(٢) والمعروف أن العمرى تناول مالى فيما كتبه أثناء حكم ملكها منسا سليمان ، وذكر جملة

---

(١) البكرى « وصف بلاد أفريقية » نشره دى سلين ط ثانية عام ١٩١١ ص ١٧٨ .

(٢) صبح الأعشى للقلقشندى ج ٥ ص ٢٨٢ – ٢٨٦ وقد نقل عن العمرى .

الأقاليم التى اشتملت عليها مالى حينذاك . وهى : غانة وزاجون وتورونكا وتكرور وسنغانة ونانبوغو وزرقطبانة وبترة ودامور وزاغة وكبارة وبرغورى وكوكو. يضاف إليها بعض الأقاليم الصحراوية التى كان يؤلف سكانها غالبية من البربر .

ويقول ابن خلدون إنه لما قابل الشيخ عثمان مفتى غانة فى عام ١٢٩٣ ذكر له أن برمندانه كان أول ملوك مالى الذين اعتنقوا الإسلام . وقد تناول ابن خلدون مالى فى كتابه « العبر » فقال عنها إنها اشتملت على خمس ممالك، وإن كل إقليم منها مملكة بذاتها . وهى :

١ — مالى . ٢ - صوصو . ٣ — غانة . ٤ - كوكو .

٥ — تكرور . وهذه الممالك تؤلف أربعة عشر إقليما .

ومن أهم الرحالة العرب الذين كتبوا عن مالى فى أهم عصورها ابن بطوطة ، زارها فى أيام منسا سليمان (١٣٥٢ — ١٣٥٩) ووصف لنا أهم مدنها وأحوالها وعاداتها وطعام أهلها وتقاليدها . . وقد أمدنا بصورة حية من مجتمع شعب مالى ، لم يصل إلينا مثله ، وسيأتى الكلام عن هذه الرحلة فيما بعد ، ونضيف إلى هؤلاء ، أحمد أبا العباس القلقشندى (القرن ١٥) صاحب صبح الأعشى .

الإسلام فى مالى

شق الإسلام طريقه إلى الأسرة الحاكمة فى مالى فى منتصف القرن الحادى عشر . وكان هذا حينما غزا المرابطون بقيادة عبد الله بن يس ديار غانة الخارجية (١٠٥٠) ونلتقى فى نفس تلك السنة للمرة الأولى باسم « برمندانة » ملك مالى الذى اعتنق الإسلام ثم أدى فريضة الحج .

ولم تصل إلينا تفصيلات من تاريخ مالى فى القرنين التاليين حتى عام ١٢٤٠ ،

وهي السنة التي تغلب فيها سندياته على « سومانجورو » ملك صوصو ، ومن ثم بدأ يشيد مجد دولته الفتية بفضل جيشه المنظم ، فتم له إخضاع الدول المجاورة في خمس سنوات ، وخرب ما تبقى من عاصمة غانة (١٢٤٠) ثم نقل حاضرة مملكته في جاريبا إلى مدينة أطلق عليها نياني أو مالي ، وذلك لكي تتوسط دولته ، وسرعان ما اجتذبت إليها تجار المغرب فاتخذوا منها مقاماً لنشاطهم واحتلت مكانة عاصمة غانة .

الملك سندياته (١٢٣٠ — ١٢٥٥)

يتسم عصر سندياته (ماري جاطة) مؤسس إمبراطورية مالي بالحروب المتعاقبة ، فلما جلس على العرش لم يكن يتنبأ له أحد بما وفق إليه من الأعمال الجيدة ، ولم يكن محبوباً عند رعاياه ، نخشوا بأسه وبطشه ، ولكنه كان على أي حال بناء دولة .

أحاطت به الأخطار في بداية حكمه . فالتجأ إلى بعض شجعان الرماة في بلاده ونصبهم حرساً له . وقد رأيناه يقضي على قبائل صوصه ، ويوجه ضرباته ضد الممالك المجاورة ، ومنها البلاد التي كان يحكمها عمه . فأرغمه على أن يقدم ولاءه له ونصبه قائداً في جيشه الجديد ، ثم اتجه إلى الغرب وغزا لبي التي تقع في إقليم فوتاجالون ، ثم سار إلى الشرق عابراً النيجر ، وأخضع القبائل التي اعترضته في طريقه إليها ، وبعد قتال استمر عدة أعوام عاد إلى جاريبا حاضرة مملكته الأولى على رأس جيشه الظافر (١٢٣٤) .

وفي العام التالي تم انتصاره على قبائل صوصو ، ثم دأب على تنظيم شئون دولته الفتية . واتجه سندياته (١٢٤٠) إلى عاصمة غانة القديمة وخربها تماماً ، لكنه استبقى ملكها الذي رضي بالخضوع له ، وسمح له بالاحتفاظ بلقب « ملك غانة » ، وحرم على جميع حكام الأقاليم الألقاب الملكية .

ولم يمتشق سندياته الحسام مرة أخرى ولكن انتشرت حاميات جيشه بين

ساحل الأطلسى إلى كانو وكنسينة وزارية فى الشرق ، وإلى قلب الأدغال فى الجنوب ، وأوغلت شمالا فى الصحراء ، وأصبحت مالى أقوى دولة فى السودان الغربى لها بأس وسيادة ، ونظم إدارية ، فضلا عما كانت تملكه من مناجم الذهب فى ونجارة . وعلى ذكر هذا المعدن النفيس ، فقد حاول سندياته أن يحول قبائل ونجارة عن الوثنية إلى الإسلام ، ولكنهم لم يستسلموا وأوقفوا العمل فى الذهب ، فاضطر إلى مهادنتهم وتركهم لعبادتهم وتقاليدهم ، فاستأنفوا أعمالهم ، واستمرت أحوال دولته محتفظة بازدهارها التجارى .

كان سندياته قاهر غانة المؤسس لمجد وعظمة مالى فى القرن الثالث عشر وفى سبيل ذلك لم يتبع سياسة نشيطة حربية من أجل النهوض بمملكته الصغيرة ، والعمل على رفعها إلى مستوى الدولة القوية فحسب ، لكنه عمل جاهداً على دعم نظم الإدارة فى بلاده وتشجيع الزراعة ولاسيما زراعة القطن .

ومات سندياته عام ١٢٥٥ م بعد حكم استمر خمساً وعشرين سنة .

منسا على - ولى[1] ١٢٥٥ — ١٢٧٠

جلس على عرش مالى بعد موت سندياته ابنه منسا ولى ، وكان من أعظم حكام بلاده ، ومحبا للسلم ، قام بتأدية فريضة الحج على عادة برمنداناه عام ١٠٥٠ م . وقد أشار القلقشندى لخروج منسا ولى الحج فى أيام السلطان بيبرس فى قافلة كبيرة اجتازت الدرب الصحراوى المعروف بطريق غات والذى يمتد من هذه المدينة وينتهى عند أهرام مصر . وكان لهذا الحجيج صدى فى أنحاء أفريقية وبعض بقاع العالم العربى .

---

(١) تذكرة المراجع العربية « منسا ولى » ومعنى منسا بلغة مالى السلطان . ومعنى ولى على .

جنح منسا ولى إلى السلم ، ولكن قادته لم يشاركوه فى سياسته ، ورأوا أنه لم يبق لهم عمل فى ظل راية الهدوء ، ولذلك قاد بعضهم جيوشه وغزوا أقاليم أخرى ، فضم أحدهم بامبوك (١) وقام آخرون بغزو كونكودوجو وجنجران ، وونجارة .

لم يقف أحد من المؤرخين على أحوال مالى فى أيام هذا السلطان ، ولكنهم يتفقون على أنه فيما بين ١٢٧٠ م و ١٣٠٧ تولى حكم البلاد ما لا يقل عن سبعة من الملوك ، نذكر منهم والى شقيق ولى . ثم خليفة ، وكان يغلب عليه الحمق ، يرمى الناس بالسهام فيقتلهم ، فوثب عليه أهل مملكته فقتلوه ، وملك بعده سبط من أسباط « ماروى جاطة » اسمه أبو بكر ، ثم تغلب على الملك مولى من مواليهم اسمه ساكبورة (١٢٨٥) فاغتصب العرش ، ومد حدود دولته على حساب جيرانه . فغزا تكرور فى الغرب . وونجارة وجاو (٢) عاصمة سنغاى فى الشرق ، وكان نجمها بدا يسطع بين الممالك الأفريقية ، فقوى سلطانه بين شعوب السودان ، ورحل إليه التجار من المغرب .

وفى ظل هذا الإمبراطور انتشر الرخاء فى مالى ، وحافظت البلاد على رقعتها ، وعمها الهدوء وشملها الرقى . وفى عام ١٣٠٠ عزم ساكبورة على الحج إلى بيت الله ، وكان ذلك أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى مصر . ولما أدى الفريضة قرر أن يتبع طريق أكسوم فى الحبشة والسودان الشرقى ، ولا ندرى سبب ذلك ، وعلى أى حال ، فإنه لما ترك سفينته ووطئت قدماه البر الأفريقى هجم عليه بعض أهالى الدناكل عند ساحل تاجورة فى الصومال وقتلوه ، وكانت مدة حكمه ١٥ سنة .

---

(١) بامبوك اقليم اشتهر بالذهب وقد ذكره العرب وونفارة فى مؤلفاتهم .

(٢) جاو أو جاغ عاصمة سنغاى . وقد ازدهرت كمدينة اسلاميه . وكانت من أشهر أسواق الملح وفاقت معظم البلدان المجاورة .

وتولى الحكم فى أعقابه ثلاثة ملوك خلال سبع سنوات، كانوا ضعافاً نذكر منهم « قو بن السلطان مارى جته » و« محمد بن قو » ثم انتقل الملك من ولد مارى جاطة إلى ولد أخيه أبى بكر والد منسا موسى العظيم .

منسا موسى (١٣٠٧ - ١٣٣٢)

تولى عرش مالى عام ١٣٠٧ م ودوى اسمه فى القارات الثلاث ولم يتولى حكم تلك الامبراطورية من يدانيه فى القدر وعلو الهمة ، فقد جاهد لإعلاء شأن بلاده ، وكان مصلحا كبيراً .

سأله ابن أمير حاجب والى مصر فى أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون (١٣٢٤ - ١٣٢٥) فى أثناء مروره بالقاهرة للحج عن سبب انتقال الملك إليه فقال .

« إن الذى قبلى كان يظن أن البحر المحيط له غاية يدرك ، فجهز مئتين من السفن وشحنها بالرجال والأزواد التى تكفيهم سنين . وأمر من فيها ألا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته أو تنفد أزوادهم ؛ فغابوا مدة طويلة ؛ ثم عادت سفينة واحدة وحضر مقدمها ؛ فسأله عن أمرهم فقال : سارت السفن زمانا طويلا حتى عرض لها فى البحر فى وسط اللجة واد له جرية عظيمة فابتلع تلك المراكب ؛ وكنت آخر القوم فرجعت بسفينتين فلم يصدقه . فجهز ألفى سفينة ألفاً للرجال وألفاً للأزواد ؛ واستخلفنى ؛ وسافر بنفسه ليعلم حقيقة ذلك ؛ فكان آخر العهد به وبمن معه ؛ وهكذا آل الحكم إليه .

سياسة الفتح :

استولى جيشه فى مستهل أيام حكمه على ولاته وتنبكتو ؛ ووصلت قواته إلى جاغ فى منطقة النيجر الأوسط . وامتدت دولته فى آخر حكمه إلى تكرور غرباً وإلى نــــدى شرقاً . وبلغ نفوذه إلى قلب الصحراء حيث أروان

وتادمكت (١) . وأوغلت سيادته حتى فوتا جالون جنوباً . ونلاحظ أن منسا موسى لم يعتمد على استقلال ديار جنى المجاورة له ، وممالك موصى التى كانت تشغل حوض الفولتا فى جنوبى إمبراطورية مالى .

نبدأ الكلام بزيارته إلى مصر فى أثناء مروره بها فى رحلته الطويلة إلى بيت الله (١٣٢٤ م) لما تركته من الانطباعات الطريفة فى أنحاء العالم الإسلامى ؛ بل وفى أوروبا أيضاً .

منسا موسى فى مصر :

تعتبر قافلة الحج التى مرت بمصر بصحبة السلطان منسا موسى من أروع مظاهر ثراء هذا العاهل الأفريقى . كان ذلك فى العام السابع عشر من حكمه (١٣٢٤) ، وقد رافق السلطان حشداً كبيراً من الوزراء والعلماء والأتباع وقدر بعض المؤرخين عددهم بحوالى ١٢،٠٠٠ .

مر بولاته وتوات وجا ورجله فسرته على شاطىء البحر المتوسط فى برقة . واتجه منها بإزاء الساحل إلى القاهرة : وهى فى ذلك الحين مركز الحياة الإسلامية وكعبة العلماء ورجال الآداب ، ولما وصل إليها استقبله الأمير أبو العباس أحمد بن الحاكى المهمندار ؛ الذى ندبه السلطان الناصر محمد بن قلاوون للاشراف على ضيافة السلطان ، ثم قدم إلى الناصر محمد هدايا شتى منها حمل كبير من الذهب الخام ؛ ولم يدع أميراً أو رب وظيفة الا نفحه من هذا الذهب .

استقبل الأهالى منسا موسى أينما سار بكل مظاهر الحفاوة التى تليق بمقام ضيف جليل ؛ وكان يرى ممتطياً جواده ؛ يسبقه خمسمائة من العبيد ؛ يحمل كل

---

(١) تادمكت مدينة بصحراء المغرب على مسيرة خمسين يوما من غانة الى الشرق (البكرى ٢) .

منهم قضيباً من الذهب ، زنة الواحد خمسمائة مثقال[1] ، وكان العاهل سخياً خيراً يتدفق المال من يديه ، ويهب المنح إلى كل من يتصل به ، وكأنه لم يبتغ من وراء ذلك إلا الظهور بمظهر السلطان الكبير الذى يحكم دولة عظمى .

ثم حدثت أزمة لكنها مرت بسلام ، فقد وجد رجاله صعوبة فى اقناعه بزيارة سلطان مصر . وفازوا أخيراً بتنفيذ رغبتهم ، وتقابل العاهلان ، وقد عمل الناصر محمد كل ما فى وسعه لراحة ضيفه وحاشيته طوال مدة إقامتهم ضيوفاً فى بلاده .

ويمدنا القلشقندى[2] بأخبار مفصلة لتلك الزيارة نقلها عن المهمندار الذى رافق السلطان .

ذكر ابن أمير حاجب والى مصر ، أنه كان معه مائة حمل ذهباً أنفقها فى سفريته على من قابلهم بطريقه إلى مصر من القبائل ، ثم بمصر ، ثم من مصر إلى الحجاز توجهاً وعوداً ، حتى احتاج إلى القرض فاستدان على ذمته من تجار مصر بما لهم عليه ، ولما عاد إلى بلاده بعث إليهم بما استدانه منهم .

تألفت قافلة منسا موسى من مائة جمل على كل منها حوالى ثلثمائة من الأرطال التى اشتملت على الهدايا النفيسة ، وكان السلطان يدفع ثمن ما يشتريه من العروض المصرية أضعاف ثمنها ، وأقبل على شراء الرقيق من النساء ، والأقمشة الحريرية . وفى أثناء إقامة منسا موسى فى مصر هبط سعر الذهب عن ثمنه العادى لوفرة ما وجد منه ، وظل منخفضاً مدة طويلة . وابتاع السلطان جملة من الكتب الدينية ليوفر لأهل بلاده مناهل الثقافة الإسلامية . وظل الناس فى مصر يذكرون ما أحاط بتلك الزيارة كحدث عالمى ، ويتناقلون أخبارها سنين طويلة .

---

(١) المثقال ثمن أوقية من الذهب .

(٢) القلشقندى : جـ ٥ ص ٢٩٧ – ٣٠٠

وقد تكررت مظاهر الكرم فى الحجاز فى اثناء الحج ، وأنفق المال بسعة فى كل مكان ذهب إليه . وفى أثناء إقامة منسا موسى فى مكة اتصل به « الساحلى » الشاعر الأندلسى[1] فالتحق بخدمة السلطان ، وقد اشتهر هذا الأديب بكفاءته فى فن البناء ، فطلب إليه السلطان أن يشيد مسجداً كبيراً فى مدينة جاو . وقد بقى هذا المسجد حوالى ثلثمائة سنة ، وكان مشيداً بالآجر .

وفى أيام منسا موسى انتعشت التجارة والعلوم فى تمبكتو ، وسرعان ما أصبحت أهم أسواق السودان الغربى ، ولا سيما بعد انتقال سوق الذهب إليها ، كما اجتذبت التجار من درعة وسوس وسجلماسة وفزان ومن مصر أيضاً

مات منسا موسى عام ١٣٣٢ تاركاً إمبراطورية مهيبة الجانب متقدمة على دول أفريقية الزنجية ، فى اتساع رقعتها ، وفى أحوالها الاقتصادية والثقافية ، بل فى نظمها الاجتماعية .

ويمكن أن نقول بحق إن منسا موسى كان رائداً لفكرة إنشاء اتحاد أفريقية الغربية ، كان المالى فى أيامه لا يشعر بالغربة ، سواء أقام فيما يعرف اليوم بغامبيا سيير اليون أو غانة ، كان لا يعرف إلا مواطناً يعيش فى مالى . ولكن لم يكتب لهذا الاتحاد أن يعيش طويلا بعد وفاة منسا موسى ، فقد عادت القبائل تحن إلى نظمها وأساليب حياتها القبلية الأصلية ، فنهض شعب موشى[2] فى باتنجا فى إقليم فولتا العلوى يغير على مالى ، وكان على عرشها ابن منسا الصغير ، ثم تدفقت غاراته الوحشية على تمبكتو واصطدم بحاميتها وحرق دورها . ومهد هذا الحاكم الضعيف لأحداث هامة .

ومما يثير الدهشة أن هذا الحاكم كان قد منح لأميرين من سنغاى ، وهما

---

(١) توفى فى تمبكتو عام ١٣٤٦ .

(٢) تؤلف قبائل موشى شطراً كبيراً من أهالى أفريقية الفرنسية (سابقاً) حيث يتركز توزيعهم حول واجد وجو ويصل إلى الأطراف الشمالية من

على كولن ، وسلمن نار حريتهما ، وأطلق سراحهما ، وكانا فى بلاط مالى على عادة أولاد الملوك الذين فى طاعتها للخدمة وكان على كولن لبيباً وفطناً ، فاضمر الهروب إلى جاو حيث أعلن نفسه ملكا على بلاده سنغاى (١٣٣٥ م) واتخذ لقب (سنى) ومعناها « المحرر » .

خلف « مغان » عمه سليمان (١٣٣٧) شقيق منسا موسى ، فبدأ حكمه بالعمل على إصلاح ما فسد من شئون الدولة وإعادة الأحوال إلى ما كانت عليه قبل اعتلاء مغان العرش . ومع أنه فشل فى استعادة جاو ، فقد استطاع أن يعيد سيادته إلى معظم البقاع التى خرجت عن طاعة مالى .

وفى عام ١٣٥١ سافر ليؤدى فريضة الحج ، ومر بعدة بلاد أكد فيها سيادته ، ومنها تكدا[1] إحدى مدن القوافل التابعة لسلطان الطوارق فى الصحراء . وقيل إنه كان يمر بها كل سنة قوافل يقدر عددها باثنى عشر ألف قافلة قادمة من نيانى (مالى) تقصد القاهرة ، وكان بالقرب منها مناجم النحاس تمد المغرب ومصر ومالى وبلاد الهوسا وبرنو بحاجاتها منه .

منسا سليمان (١٣٥٢ — ١٣٥٩)

تولى الحكم بعده منسا سليمان شقيق منسا موسى ، وقد اجتمع له ما فتحه أخوه من بلاد السودان وأضافه إلى سلطان الإسلام ، وشـــيد المساجد والمدارس ، وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك .

وفى أيام منسا سليمان زار الرحالة المغربى ابن بطوطة دولة مالى ، وتنقل بين مدنها الكبرى ، وقابل السلطان : والتقى بطائفة كبيرة من العلماء والتجار ، وقد حدثنا عن تلك البلاد وأحوالها المختلفة التى لم يصفها مثله أحد من المؤرخين أو الجغرافيين العرب الذين عنوا بدول السودان الإسلامية .

---

(١) مر ابن بطوطة بتكدا فى أثناء رحلته ، وكانت من أكبر مدن الطوارق ، خضع سلطانها إسمياً لمالى .

بدأ ابن بطوطة رحلته من مسوفة (٧٥٣ هـ — ١٣٥٣) بعد مغادرته أيو الاتن ، ومر بزاغواى ، ثم وصل إلى نهر النيجر وعليه بلدة أكارسخو حيث ينحدر منها النهر إلى كابرة وزاغة ، وكلها مدن إسلامية ، ولما وصل إلى نهر صنصرة ، وهو على نحو عشرة أميال من مالى ، ركب قارباً إلى مدينة مالى ، فنزل عند مقبرتها ، ثم قصد إلى محلة السكان البيض حيث كان فى انتظاره السيد محمد ابن الفقيه الجازولى ، وكان قد استأجر له داراً فتوجه إليها وجاءه صهر الفقيه بشمعة وطعام .

وسنترك الكلام بعد ذلك لابن بطوطة ليحدثنا حديث الملم بأحوال مالى غاية الإلمام [1] ، وسيبدأ حديثه بوصف مقابلته لمنسا سليمان .

كان السلطان منسا سليمان (منسا معناها السلطان) هو الذى يحكم مالى فى ذلك الحين ، وهو ملك بخيل لايرجى منه كبير عطاء .

تقدمت فسلمت على منسا سليمان ، وأعلمه القاضى والخطيب وابن الفقيه بحالى ، فأجابهم بلسانهم . فقالوا لى : يقول لك السلطان اشكر الله فقلت : الحمدلله والشكر على كل حال .

ولما انصرفت بعد ذلك إلى الضيافة توجهت إلى دارالقاضى. وبعث القاضى بها مع رجاله إلى دار ابن الفقيه ، فخرج ابن الفقيه من داره مسرعاً حافى القدمين فدخل على وقال : قم ، جاءك « قماش » السلطان وهديته ، فقدمت وظننت أنها الخلع والأموال ، فإذا هى ثلاثة أقراص من الخبز ، وقطعة لحم بقرى مقلوة بالفرتى (الدهن) وقرعة فيها لبن رائب ، فعندما رأيتها ضحكت وطال تعجبى من ضعف عقولهم وتعظيمهم للشىء الحقير .

وأقمت بعد بعث هذه الضيافة شهرين لم يصل إلى فيهما شىء من قبل السلطان ، ودخل شهر رمضان ، وكنت خلال ذلك أتردد إلى « المشور » وأسلم عليه وأقعد مع القاضى والخطيب ، فتكلمت مع دوغا الترجمان ، فقال : تكلم عنده

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ٣٠٢ — ٣٠٨ .

وأهم المدن فى السودان من حيث عدد السكان فى عام ١٩٦٥ هى :

١ - أم درمان وعدد سكانها ١٨٥ر٣٨٠ نسمة

٢ — الخرطوم (بما ذلك الخرطوم بحرى) وعدد سكانها ١٧٢ر٥٥٠ نسمة

٣ — بورسودان وعدد سكانها ١١٠ر٠٠٠ نسمه

الحياة الاقتصادية :

يعتمد اقتصاد السودان على نهر النيل وروافده ، على النهر والروافد تقوم مراكز العمران الرئيسية ، ومن الناحية الادارية فان القطر مقسم إلى ٩ مديريات ، وكما هو متوقع فان المنطقة الوسطى حول النيلين الابيض والازرق هى أكثر الاجزاء كثافة سكانية وفى عام ١٩٦٣ كانت كثافة السكان فى مديرية الخرطوم هى ٢٤ نسمة كم٢ ومديرية النيل الازرق كثافة السكان بها ١٥ نسمة / كم٢ وبمقارنة ذلك بالمديرية الشماليه كانت كثافة السكان بها فى نفس السنه شخصان / كم٢ وكل من دارفور وكسلا لم تزد متوسط الكثافه فيهما عن ٣ نسمه / كم٢ ، وقد أجرى أول تعداد رسمى للسكان فى عام ٥٠ / ١٩٥٦ وكان عدد السكان ٣ر١٠ مليون نسمه وفى عام ١٩٦٦ قدر العدد بحوالى ٩ر١٣ مليون نسمة وتقدر خطة السنوات الخمس ان السكان سيصبحون ٨ر١٥ مليون فى عام ١٩٧١ . وليس هناك شك فى أن عددا أكبر من السكان يمكن أن يحقق فائدة اقتصادية أكبر للسودان . وحوالى ⅔ السكان مسلمون يتكلمون العربية بينما يتكون الثلث الباقى من النيليين والحاميين النيليين والجماعات السودانية التى تتكلم مجموعة من لغات وسط أفريقية وتعيش هذه الفئة حتى الأخيرة فى المديريات الجنوبية الثلاثة وهم أقرب اجتماعيا وحضارياً لجيرانهم الجنوبيين عن سكان الشمال الذين يتكلمون العربية .

وقدر تعداد السكان عام ١٩٥٦ بأن ٨٧٪ من قوة العمل فى القطر تعمل فى أنشطة اقتصادية أولية ترتبط بصفة أساسية بالزراعة والرى بينما ١٣٪ فقط يعملون فى أنشطة ثانوية أو مركبة مثل النقل والمواصلات والتجارة وخدمات الحكم والادارة .

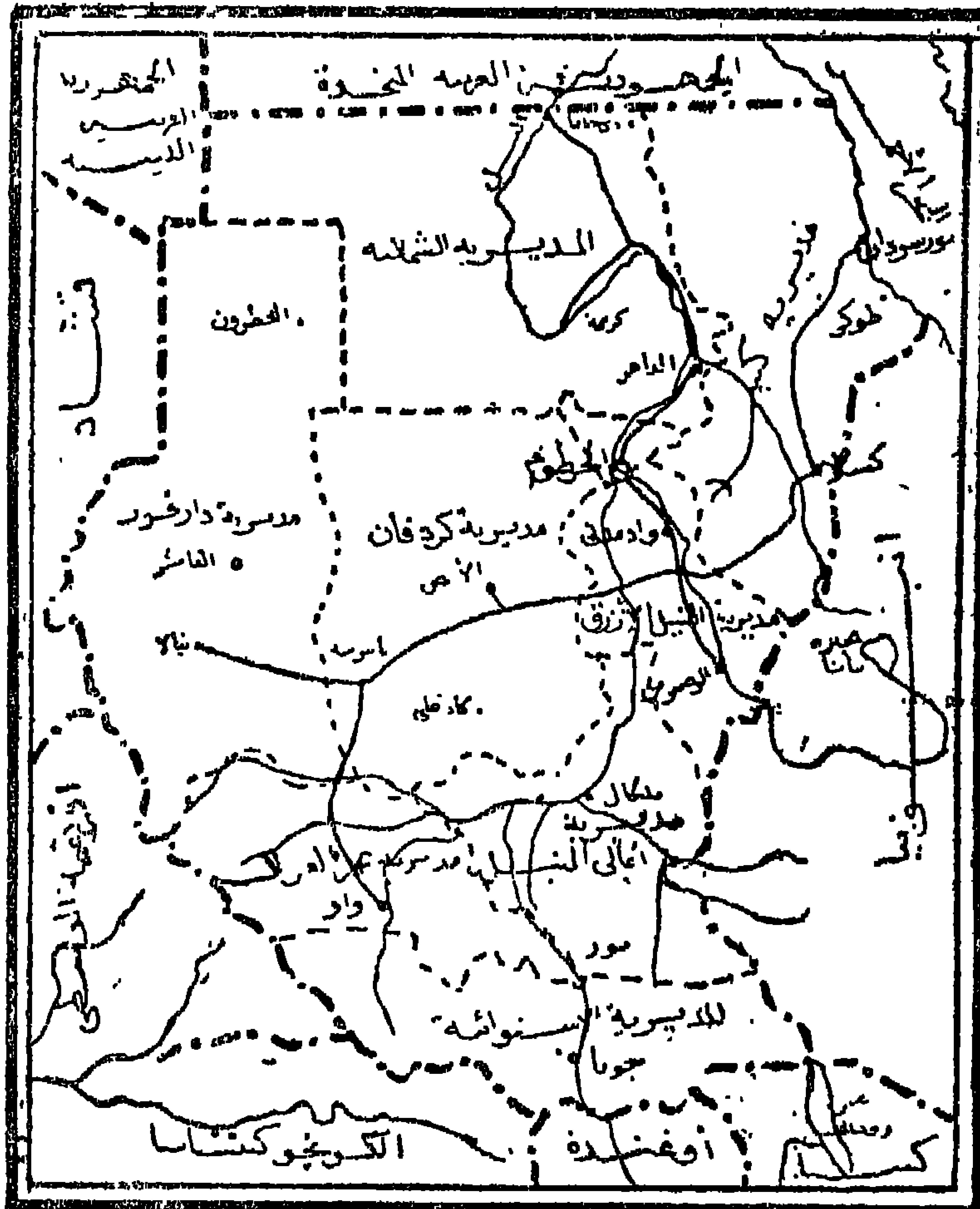
وطبقاً لبيانات صندوق النقد الدولى فان الدخل القومى ارتفع من ٣١٥ مليون جنيه استرلينى فى عام ١٩٥٨ إلى ٣٩٠ مليون فى عام ١٩٦٢ بمتوسط دخل قدره حوالى ٣٣ جنيهاً استرلينياً فى العام الأخير . وبمقارنة الحصص التى تسهم بها الأنشطة الاقتصادية فى الدخل القومى أن فى عامى ١٩٥٥/١٩٥٦ ، ١٩٦٠/١٩٦١ انخفضت حصة الأنشطة الأولية من ٦١٪ إلى ٥٦٪ تبعاً لانخفاض نصيب الزراعة وصحب ذلك بزيادة حصة الأنشطة الثانوية والمركبة من ٣٩٪ إلى ٤٤٪ وبزيادة حصة النقل والمواصلات من ١٣٪ ، إلى ١٣٪ والصناعة من ١٪ إلى ٢٪ والإنشاء والتعمير من ٦٪ إلى ٧٪ . والأنشطة الحكومية من ٦٪ إلى ٨٪ .

المواصلات :

يشكل خلق مواصلات فعالة فى السودان مشكلة أساسية ، كما أن العاصمة السودانية مفصولة عن الميناء الحديث الوحيد بورسودان بمنطقة جافة قاسية ، ومنتجات جنوب السودان تفصلها مسافات شاسعة عن ميناء التصدير مما يخلق مشكلات حادة وعلى الرغم من أن الخطوط الحديدية التى تمتد الآن فى السودان ، فان كثيراً من الاختناقات والتأخير تحدث بالنسبة لنقل السلع من بورسودان وإليها ، ولقد أصبح واضحاً تماماً أن هناك ضرورة ملحة لإيجاد نظام فعال للمواصلات وفقاً لزيادة الانتاج الزراعى وإضافة مساحات أخرى إلى الأراضى المنتجة ، وقد خصص لمشروعات تطوير طرق المواصلات فى خطة التنمية فى السنوات العشر من ١٩٦٢/٦١ إلى ١٩٧٠ / ١٩٧١ مبلغ يصل إلى ٩٥ مليون جنيه سودانى .

وتشكل السكك الحديدية التى بدأ إنشاؤها فى نهاية القرن التاسع عشر ، ركيزة أساسية فى شبكة المواصلات السودانيه ، وهى ملك للحكومة ، وهى تبلغ الآن طولا قدره ثمانية آلاف كيلومتر ، وهى عبارة عن خطوط منفردة ومقياسها يبلغ ثلاثة أقدام و٦ بوصات (١٠٥ سم) وتصل الخطوط الحديدية فيما بين بورسودان على البحر الأحمر حتى عطبرة فالخرطوم والجزيرة وسنار والقضارف كما يوجد وصلة بين هيا وكسلا ، ومن العطبرة يتجه خط إلى الشمال حتى وادى حلفا وكريمة ، ومن سنار يمتد خط غربا الى كوستى والأبيض وبابنوسة التى يتفرع منها خطان إلى نيالى غرباً والى واو جنوباً ، كما توجد أيضاً وصلة بين سنار والروصيرص ، وتتزايد بصورة دائمة كمية الحمولة على الخطوط الحديدية ، وفى عام ١٩٦٣ بلغت ٢ر٤ مليون طن بزيادة مليون طن عن عام ١٩٥١ ، كما أن عدد الركاب فى تزايد مستمر هو الآخر ، ولا يوجد تنافس بين الخطوط الحديدية وطرق المواصلات الأخرى مما يجعل هناك أرباحاً معقولة فى السكك الحديدية .

وفى عام ١٩٥٧ كان تطوير مرفق السكك الحديدية السودانى يتم تمويله من الأرباح التى يحققها ومن الموارد المالية الداخلية فى السودان ، ولكن الحاجة الملحة إلى ضرورة تطوير المواصلات السودانية بما يخدم زيادة الانتاج الاقتصادى - دفعت الحكومة إلى ضرورة الاستعانة بقروض خارجية ، وعلى ذلك فانه فى عام ١٩٥٨ قدم البنك الدولى للانشاء والتعمير قرضاً للحكومة على مدى عشرين عاماً قيمته ٥ر١٣ مليون جنيه سودانى ، وفى عام ١٩٦٢ قدمت الكويت قرضاً قيمته سبعة ملايين جنيه ، وفى أكتوبر ١٩٦٤ قدم البنك الدولى للانشاء والتعمير قرضاً آخر قيمته عشرة ملايين جنيه من أجل مد خطوط السكك الحديدية ، وأكبر خطين من المقرر مدهما فى خطة السنوات العشر هما الامتداد من واو إلى جوبا عاصمة المديرية الاستوائية ومن نيالا إلى الجنينة قرب حدود جمهورية السودان مع تشاد . وفى عام ١٩٦٤ دعيت الحكومة اليابانية للاسهام فى المشروع الأخير ، وقد أبدت بدورها اهتماما بالعرض لمد



جمهورية السودان

الخط الحديدى إلى حوالى ١٫٥٠٠ كيلو متراً عبر تشاد إلى نيجيريا لربط الساحل الافريقى الغربى على الأطلنطى بالساحل الشرقى على البحر الأحمر ، وقام فريق يابانى بعمليات المسح فى ذلك العام بالمنطقة بين نيالا والجنينة ، وعلى الرغم من أن تنفيذ هذه المشروعات قد يتأخر بعض الشىء فان هناك بعض الأمل فى أن يؤدى ذلك حين يتم الى تنمية الانتاج فى المناطق الجنوبية من السودان لخدمة مناطق الكثافة السكانية فى السودان ولربط هذه المناطق ببور سودان .

وتتولى سكك حديد السودان إدارة ميناء السودان الحديث ، والوحيد بورسودان الذى يقع على البحر الأحمر . وللميناء مدخل ضاف وعميق عرضه أكثر من ٣٥٠ متراً وبعمق يتراوح بين ١٨ ، ٢٥ متراً . وتبلغ جملة طول الأرصفة ٤٠٠ متراً وأقل عمق للماء هو سبعة أمتار ونصف ، وبالميناء ١٦ مرسى صغير وأربعة مراسى كبيرة . وتوجد منطقة للتخزين ومخزن للفحم وتزويد السفن بالوقود . وبالنظر إلى أن بورسودان هى ميناء السودان الوحيد فان هناك ازدحاما كبيراً فيه من حركة الصادرات والواردات ، ويتحتم على السفن فى كثير من الأحيان أن تنتظر خارج الميناء عدة أيام قبل السماح لها بالدخول ، وفى عام ١٩٦١ زارت الميناء ١٩٤٧ سفينة وتم التعامل فى ٢٫٤ مليون طن بينما كانت أرقام ١٩٦٣ هى ١٫٢٨١ سفينة والحمولة ٢٫٥ مليون طن . وفى كثير من الأحيان لا تستطيع القطارات أن تنقل كل ما تجلبه السفن من بضائع أو ان تنقل السفن حمولتها الكاملة ولذلك فان هناك مشروعا لتطوير الخطوط الحديدية المتصلة بالميناء مما يقلل من الازدحام نسبياً وإن كانت هناك ضرورة ماسة إلى إيجاد ميناء آخر ومن أجل ذلك الهدف فقد خصص ٥ ملايين جنيه فى مشروع السنوات العشر من أجل عمليات التخطيط والاعداد التى تسبق إنشاء ميناء آخر . ويغلب الاحتمال على أن أكثر الأماكن قبولا التى قد يتم اختيار الميناء الجديد بها هى إلى الشمال مباشرة من ميناء سواكن القديم ويجرى كثير من عمليات المسح فى هذه المنطقة ، ومنذ عام ١٩٦٢ وللسودان أسطول تجارى يضم أربع سفن بنتها يوغوسلافيا وحمولة كل منها ٤٫٩٥٠ طناً .

كما أن نهر النيل بالإضافة إلى وظيفته الأساسية فى تقديم مياه الرى ، يخدم كطريق للمواصلات لكل من الركاب والبضائع . وطول المجارى النيلية التى تستخدم فى الملاحة ٣٤٧٠ كيلومتراً تقطعها كثير من السفن التجارية التى تديرها سكك خطوط حديد السودان والخطوط الملاحية النهرية الأساسية تمتد من كوستى إلى جوبا كما توجد مواصلات موسمية بين دنقلة إلى النيل الأزرق وحتى جمبيلة على السوباط فى أثيوبيا ، وفى فترة الفيضان يوجد خط ملاحى بين مشروع الرى إلى واو ومناطق الماشية فى الجنوب الغربى .

أما طريق السيارات فى السودان فهى متخلفة كثيراً ، وحتى الآن فانه مع استثناءات قليلة لا يوجد خارج منطقة الخرطوم سوى طرق فقيرة تناسب كل الظروف المناخية خاصة فى الجنوب . ولم تكن هناك طرق للربط بين المدن لأن ارتفاع تكلفة الرصف بالقار لم تكن تجد مبرراً مالياً بسبب ضعف حركة المرور وإن كان الطريق بين كل من مدينتى الخرطوم وودمدنى وهو أول طريق برى بين المدن قد أوشك على الاكتمال وسوف يؤدى ذلك إلى تخفيف الحمل على الخط الحديدى بين العاصمة السودانية المثلثة ومنطقة القطن فى الجزيرة كما أن دراسة تمهيدية قد تمت حول إنشاء طريق برى بين الخرطوم وبورسودان طوله ٩٥٠ كم . كما أن عدداً من الكبارى أقيمت على النيل وسوف يزداد عددها لتربط المناطق المهمة مثل كوبرى شباط بين الخرطوم والخرطوم بحرى أو الكوبرى الذى يربط بين أم درمان والخرطوم على النيل الأبيض ومشروع الكوبرى على نهر جور عند واو .

والنقل الجوى بالغ الأهمية بالنظر إلى المساحة الكبيرة ولهذا فان المواصلات الجوية الداخلية يجب تطويرها بسرعة . ويوجد بالسودان عشرة مطارات أساسية بالاضافة الى حوالى ثلاثين مطاراً فرعياً يمكن أن تتم فيها عمليات الإقلاع والهبوط . وأكبر مطارات السودان فى الخرطوم وهو يخدم المنطقة الجوية بين مدينة الكيب فى جمهورية جنوب أفريقيا وبين لندن وتجرى المناقشات حول نقل مطار الخرطوم إلى منطقة على بعد خمسة كيلو مترات

غرب أم درمان كما يجرى العمل فى تخطيط مطار جديد بقرب بور سودان عند Asotriba يتكلف ٢ مليون جنيه وفى عام ١٩٦٤ تم افتتاح مطار سنار ، وتعمل شركة الخطوط الجوية السودانية فى هذه الخطوط الداخلية إلى جانب تقديم خدمات للأقطار الافريقية والمجاورة والشرق الاوسط وأوربا .. وقد قل عدد المسافرين والحمولة على الشركة فى عام ١٩٦٥ عما كان عليها فى عام ١٩٦٤ حيث كان عدد الرحلات فى ١٩٦٤-٣٠٣١ قل الى ٢٣٠٨ فى ١٩٦٥ وقلت الحمولة من ١٫٦ مليون كيلو جرام الى ١٫٤ مليون كم ، وعدد المسافرين من ١٠٠٫٠٠٠ الى ٩٠٫٠٠٠ .

الزراعة والغابات وصيد الأسماك :

أهم المحصولات الزراعية النقدية فى السودان هو القطن الذى يكون وحده ٥٠ ٪ من قيمة الصادرات فى عام ١٩٦٥ ويوجد نوعان رئيسيان من القطن فى السودان هما السكلاريدس والأمريكى . ويزرع النوع الأمريكى . اعتمادا على المطر بينما السكلاريدس يعتمد على الرى وهو أطول تيلة . ومنطقة زراعة القطن الأساسية هى الجزيرة بين النيلين الأبيض والأزرق وتبلغ مساحتها الآن ١٫٨٥٠٫٠٠٠ فدان وهى أكبر مزرعة تخضع لإدارة واحدة فى العالم والأرض مملوكة للدولة ومتوسط المساحة المؤجرة هى ٤٠ فدانا للمستأجر يزرع منها عشرة بالقطن الطويل التيلة بصفة دائمة ، والقطن يزرع بالمشاركة دون غيره من المحاصيل حيث تحصل الحكومة على ٤٠ ٪ من القيمة ويحصل المستأجر على ٤٦ ٪ وتحصل إدارة مشروع الجزيرة على ١٠ ٪ و ٢ ٪ تخصص لمشروعات التنمية الاجتماعية بينما النسبة الباقية وهى ٢ ٪ تخصص للمجالس الحكومية المحلية لتقديم خدمات اجتماعية . ومشروع الجزيرة يخضع الآن لدورة زراعية ثمانية كانت فى الماضى تعتبر ضرورية لسلامة المحاصيل وينتج عنها أن ٤٣ ٣/٤ ٪ من جملة المساحة تكون مزروعة فى أى وقت (منها ٢٥ ٪ بالقطن ١٢٫٥٠ ٪ بالذرة ٦ ١/٤ ٪ تزرع باللوبيا) بينما النسبة

الباقية وهى ٥٦ ½ ./. تبقى محروثة بلا زرع . وقد وجد أن القمح والفول السودانى يمكن أن تزرع فى الأوقات التى لا تستخدم فيها الطاقة الكاملة لقنوات الرى دون أن يتعرض القطن للخطر ، وعندما يكون هناك مزيد من الماء الفائض بعد اتمام المرحلة الأولى من سد الروصيرص فى عام ١٩٦٦ فانه يمكن رفع نسبة الأرض المزروعة الى ٧٥ ./. ، ومما لاشك فيه أن مشروع الجزيرة الذى يرجع الى عام ١٩١٢ قد حدث له تطور كبير وأنه يمثل عماد الاقتصاد الزراعى السودانى .

والمناطق الرئيسية الأخرى التى ينمو فيها القطن تشمل مشروعات النيل الأبيض التى ينمو بها قطن لامبرت Lambert وهى تنمو فى المزارع الخاصة التى تنتشر على طول كل من النيلين الابيض والازرق ودلتا طوكر فى مديرية كسلا ودلتا القاش حيث يزرع الى جانب القطن كل من الذرة الرفيعة والخروع Crstor أما القطن الأمريكى الذى يزرع اعتمادا على مياه المطر فانه يوجد فى جبال النوبة بمديرية كردفان وفى المديرية الاستوائية وفى المديرية الشمالية واعتمادا على خزان خشم القربة الذى اكتمل ، فانه سيكون بالامكان زراعة نصف مليون فدان يخصص معظمها لزراعة القطن وكذلك فإن مشروع كنانة Kenana الذى يوجد جنوب مشروع الجزيرة سيخصص لزراعة القطن بعد اتمام المرحلة الأولى من سد الروصيرص .

وعلى الرغم من أن مساحة القطن آخذة فى الازدياد ، وقد بلغت فى عام ٦٤ / ١٩٦٥ ما جملته ١٫٠٦٧٫٦٠٥ فدانا فان المحصول فى الأعوام الأخيرة قد هبط بحدة فى عام ٦٣/١٩٦٤ إلى ٥٣٨٫٠١٠ بالة كنتيجة للجفاف والآفات وما حدث عالمياً من زيادة الطلب على الأقطان منخفضة الرتبة مما أدى إلى انخفاض الصادرات . وبلغ المحصول فى ٦٤ / ١٩٦٥ ما جملته ٨٠٦٫٣٤٣ بالة مما يعد تحسنا ملحوظا عن العام الذى سبقه ، وإن كان ما يزال منخفضا كثيرا عما كان عليه المحصول فى عام ٦١ / ١٩٦٢ وهو ١٫١٤٥٫١٢٣ بالة .

ويتفاوت انتاج بذرة القطن كمصدر الزيوت تبعا لتفاوت انتاج القطن ، وقد هبط انتاجها بحدة فى عام ٦٣ / ١٩٦٤ الى ١٨٦٫٠٠٠ طن قيمتها ٤٫٧

مليون جنيه سودانى ، وبلغت جملة صادرات بذرة القطن فى عام ١٩٦٣ - ٢ر٣ مليون جنيه وارتفع الانتاج فى ٦٤/١٧١٥ الى ٠٠٠ر٢٩١ طن لم يصدر منها سوى ٠٠٠ر٦٧ طن بينما اتجه الجزء الباقى الى المعاصر المحلية .. أما الحبوب الزيتية الاخرى ذات الاهمية فهى السمسم والفول السودانى والخروع . وقد ازداد انتاج السمسم فى الاعوام الاخيرة ، وهو يتأثر بالاحوال المناخية مثل المحاصيل الأخرى ، وفى عام ٦٣/٦٤ كانت المساحة المزروعة ٠٠٠ر١٩٠ر١ فدان أنتجت ٠٠٠ر١٥٣ طن صدر منها ٠٠٠ر١٠١ طن وبلغ ثمنها ٤ر٦ مليون جنيه سودانى وقد ازدادت المساحة المزروعة فى عام ٦٤ / ١٩٦٥ الى ٠٠٠ر٢٧٠ر١ فدان أنتجت ٠٠٠ر٢٠١ طن صدر منها ٠٠٠ر٣٦ طن فى الفترة بين يناير ويونية ١٩٦٥ وبلغت قيمتها ٣ر٢ مليون جنيه سودانى (بينما فى النصف الاول من عام ١٩٦٤ صدر ٠٠٠ر٦١ طن بلغ سعرها ٩ر٣ مليون جنيه) أما الفول السودانى فهو محصول تتزايد أهميته وقد ازدادت المساحة المزروعة منه من ٠٠٠ر٤٧٠ فدان فى عام ٦٠ / ١٩٦١ الى ٠٠٠ر٨٨٥ فدان فى عام ٦٣ / ١٩٦٤ وإن كانت قد هبطت الى ٠٠٠ر٧٨٤ فدان فى عام ٦٤ / ١٩٦٥ ، وقد ارتفعت قيمة صادرات الفول السودانى من ٤ر٥ مليون جنيه سودانى فى عام ١٩٦١ ، الى ١ر٩ مليون جنيه فى عام ١٩٦٤ حين بلغ الانتاج ٢٩٢٠٠٠ طن . ومن يناير الى يونيو ١٩٦٥ بلغت صادرات الفول السودانى ٠٠٠ر١٠٣ ون ثمنها ٦ مليون جنيه (بينما بلغت فى نفس الفترة من عام ١٩٦٤ - ٩٦٠٠٠ طن وثمنها ٤ر٥ مليون جنيه) وقد ساهم فى زيادة العائد من محصول ١٩٦٤ / ١٩٦٥ فشل السوق النيجيرى فى تلبية الطلب المتزايد فيما وراء البحار فى بداية الموسم مما تسبب فى ارتفاع الاسعار .

كما تزرع أيضا بالسودان فول الصويا والكتان إلى بذور عباد الشمس ولب البطيخ وتمثل مصادر ثانوية فى استخراج الزيوت ، ويقدر أنه طبقا لمشروع السنوات العشر فان انتاج السمسم فى عام ٧٠ / ١٩٧١ سوف يرتفع

إلى ٢٧٥٫٠٠٠ طن والفول السودانى إلى ٤٠٫٠٠٠ طن وبذور الخروع الى ١٧٫٠٠٠ طن .

أما بالنسبة لكل من الفاكهة والخضراوات كمحصولات نقدية وغذائيه فى أن معافات الحكومة تشجع على زراعتها كثيرا . وثمة تشجيع كبير أيضاً لزراعة الموالح التى يمكن أن تنتشر على طول النطاق الذى يزرع بالتمور وهى من أهم محاصيل السودان — وزراعة النخيل قديمة جدا فى السودان وإن لم يصبح التمر ذا قيمة كبيرة فى الصادرات إلا فى الأعوام الأخيرة ، ومن الفواكه الأخرى الموز والجوفة والمانجو وكلها تقدم مصدرا قيما للغذاء خاصة فى الجنوب ، وتسويق هذه الحصولات سريعة التلف يمثل مشكلة ليست هينة وإن كانت زيادة الانتاج تشجع على صناعة التعليب .

ويستهلك السودانى حوالى ١٢٠٫٠٠٠ طن من السكر سنوياً ، وتهدف سياسة الحكومة إلى أن يصبح السودان دولة تكتفى ذاتيا من هذه السلعة ، ويزرع قصب السكر حالياً فى مزارع السكر بالجنيدة وتوجد مصانع محلية انتجت ١٩٫٠٠٠ طن فى عام ١٩٦٥ ويوجد الآن منذ عام ١٩٦٦ مصنع آخر فى خشم القربة سوف يساعد على زيادة إنتاج السكر .

وتوجد زيادة مضطردة فى إنتاج محاصيل جديدة فى الجنوب مثل البن والشاى والطباق وتبلغ جملة الإنتاج من بن الرستا Rohusta حوالى ١٢٢٫٠٠٠ كيلوجرام فى عام ١٩٦٣/١٩٦٤ أو حوالى ثلاثة أضعاف الإنتاج فى موسم ١٩٦٣/٦٢ ، كما كان إنتاج الطباق ٢١٨٫٠٠٠ كيلوجرام .

والذرة هو المحصول الغذائى الأساسى فى البلاد وينتج السودان سنوياً حوالى مليون طن منه (١٫٠٣٥٫٠٠٠ طن فى الموسم ١٩٦٤/٦٣ صدر منها ٦١٫٠٠٠ طن وبلغ ثمنها ١٫٥ مليون جنيه) كما يزرع أيضاً الدخان والذرة الرفيعة فى الجنوب على وجه الخصوص وتهدف سياسة الحكومة الزراعية إلى

تطوير أصناف جديدة من الغلال وقد أحرزت بعض النجاح فى ذلك فارتفعت مساحة القمح ومن المنتظر أن يبلغ الانتاج ابتداء من عام ١٩٧١/٧٠ ما جملته ٩٦٠٠٠ طن سنوياً . كما يشجع إنتاج الشعير ومن المحتمل أن يكون الأرز من أكثر الغلال نجاحا فى الزراعة كمحصول جديد فى السودان ومن المناطق التى يجرى التفكير فى التوسع فى زراعة الأرز بها منطقة نهر لول فى مديرية بحر الغزال حيث الملكيات صغيرة وتهدف الحكومة إلى إيجاد محصول نقدى للسكان ومصدر جديد للغذاء ومن المتوقع أن يصل متوسط إنتاج الأرز السنوى إلى ١٣٠٠٠ طن ابتداء من موسم عام ١٩٧١/٧٠ .

ولا يوجد تعداد دقيق للثروة الحيوانية فى السودان وإن كان قد جرى تقدير لها فى عام ١٩٦٤ وتبلغ الماشية وفقاً لهذا التقدير ٩ ملايين من الرؤوس ويقل العدد عن ذلك بعض الشىء فى الاغنام ويوجد حوالى ستة ملايين من الماعز وحوالى ٢ مليون من الابل وحوالى عشرة ملايين من الدجاج وتهدف سياسة الحكومة إلى توفير الرعاية الطبية لهذه الثروة الحيوانية حتى تقل الأمراض بينها ، كما ترمى إلى تحسين السلالات بما يحقق حصة أكبر للثروة الحيوانية فى اقتصاديات البلاد ، ومن أجل ذلك تنتشر كثير من الوحدات البيطرية والمعامل والمستشفيات وهى توجد مثــلا فى كوكو فى مديرية الخرطوم حيث انشأت الحكومة مزرعة للماشية والدجاج وبها وحدة تجريبية لإنتاج أبقار الذبح ولها مشروع خاص بها . وتتجه معظم صادرات الماشية إلى كل من مصر والسعودية وقد بلغت قيمتها مليون جنيه فى عام ١٩٦٣ ، كما تبلغ جملة قيمة الجلود حوالى مليون جنيه سنوياً (٩٨٩٠٠٠ جنيه فى عام ١٩٦٤) وإن كان سوء التجفيف والاعداد والدباغة يؤدى إلى تقليل العائد من الجلود ، وعلى الرغم من ضخامة صادرات السودان من الجلود فإن السودان يستورد كميات لا بأس بهـا من المصنوعات الجلدية وتعمل الحكومة السودانية على علاج هذا التناقص بإنشاء مدابغ حديثة ومصانع للأحذية وصناعات جلدية حديثة أخرى .

ويشمل الصمغ العربى المحصول الشجرى الأساسى من الغابات ، وتسهم السودان بما يتراوح بين ٨٠٪ و ٩٠٪ من الطلب العالمى للصمغ ويأتى الانتاج كله من الغابات خاصة من أشجار الهاشاب Hashab والطلح وإن كان النوع الأول أجود ومديرية كوردفان تمثل المركز الأول فى الإنتاج ، وكانت جملة محصول عام ١٩٦٤/١٩٦٥ هى ٤٦٫٠٠٠ طن وقدرت الصادرات فى عام ١٩٦٥ بحوالى ٥٢٠٠٠ طن وهو رقم قياسى وبلغت قيمة صادرات الصمغ العربى فى عام ١٩٦٤ حوالى ٦٫٨ مليون جنيه بينما كانت فى عام ١٩٦٣ تصل إلى ٥٫٧ مليون جنيه وفى ١٩٦٢ لم تزد على ٤٫٦ مليـــون جنيه ، وتعمل الحكومة السودانية على تطوير استغلال الأخشاب بها من أجل تنمية الإنتاج وزيادة الاستخدام المحلى وينتج سنوياً حوالى مليون قدم مكعب الأخشاب . وتنمو أشجار نخيل الدوم على طول نهر عطرة وهى تنتج ثمرة تصدر ليصنع من ثمراتها بعض الازرار الرخيصة . ومن المنتجات الأخرى التى تصدر بكميات قليلة شمع العسل والسنامكى Scuua .

وتوجد عمليات صيد السمك على طول نهر النيل وروافده ، وإن كان معظم الصيد يتجه للاستهلاك المعيشى ، أما الصيد للتجارة فلا يلعب سوى دور ثانوى للغاية فى الاقتصاد على الرغم من المحاولات المبذولة لتطوير المصايد على طول النيل وفى جبهة البحر الأحمر ، وتقدر جملة كميات الصيد بأنها ١٢٫٠٠٠ طن من الاسماك سنوياً .

المعادن :

توجد كميات متواضعة من المعادن فى السودان وحتى الآن لا يلعب التعدين سوى دور محدود فى اقتصاديات السودان والمعادن التالية توجد لها خامات فى السودان : خام الحديد ، الذهب ، النحاس ، الجبس ، المنجنيز ، الميكا ، الفرموكوليت ، البيريت والجرانيت ، والرصاص ، الزنك ، الكروم ، الازبستوس ، الملح ، الكاولين ، النطرون . الفلسبار ، الكبريت . الكوارتز ،

التلك ، الرخام ، الطفلة والحجر الجيرى والفحم ، وقليل جداً من هذه المعادن يستعمل ، إلا أن الملح يعدن من السطوح الملحية قرب بور سودان بكميات تكفى الاستهلاك المحلى ويبقى فائض للتصدير ، ينتج سنوياً من الذهب حوالى ١٫٥٠٠ أوقية أما خام الحديد فيتم استخراجه وتصديره بواسطة إحدى الشركات اليوجوسلافية من منطقة فودكوان Fodikwan التى تقع على بعد ١٦٠ شمال بور سودان ومن المعادن الأخرى التى تنتج بكميات ضئيلة المنجنيز والميكا والكوارتز والرخام وتقوم بالعمل شركة إيطالية يابانية . فى حفرة النحاس فى مديرية دارفور حيث أكتشفت كميات معقولة من الرواسب النحاسية ، كما أن الشركات الإيطالية تقوم بتعدين الازبستوس فى إقليم القضارف ، وتبذل محاولات للعثور على البترول وإن لم تصادف نجاحاً حتى الآن .

الصناعة :

لازالت الصناعة فى السودان محدودة للغاية رغم جهود الحكومة فى الأعوام الأخيرة لتطورها . ومن أهم عوائق تطور الصناعة فى السودان عدم توفر رأس المال المحلى والخبرة الفنية فى الصناعة وصعوبة المواصلات وعدم توفر الخبرة الإدارية ، ومع ذلك توجد عدة صناعات ثانوية بسيطة مثل صناعة البيرة ، وصناعة السجائر والأحذية والعطور والزجاج والصينى وأجهزة تكييف الهواء والمنسوجات والكبريت والكارتون والكيماويات الدوائية ، ومعظم الصناعات يملكها الأفراد وإن كانت الحكومة تتولى إدارة المصالح العامة مثل السكك الحديدية وكثير من محالج القطن ومصانع السكر فى الجنيد والخرطوم وخشم القربة ومصنع ورق الكارتون فى أروما Aroma ومصنع الدباغة فى الخرطوم ومصانع التعليب فى كريمة وفى واو ومصنع اللبن الجاف فى بابنوسة ومصنعا الأسمنت فى كل من عطبرة وبقرب كوستى ملك للقطاع الخاص ، ويوجد معمل لتكرير البترول فى بور سودان ملك لشركة شل وشركة

بريتش بتروليون وقد بدأ العمل فى نوفمبر ١٩٦٤ وطاقته ٢٫٠٠٠ برميل يومياً وسوف يكفل سد احتياجات السودان من البنزين والكيروسين ومصدر وقود المحركات وبنزين الطائرات . ويؤدى عدم توفر المياه العذبة إلى اغلاق المعمل فترات طويلة وتفكر الشركة فى استخدام المياه الملحة لأغراض التبريد، وقد انشئت عدة مصانع يملكها الأفراد فى عام ١٩٦٤ تقوم بصناعات عصر الزيوت والمنسوجات والصابون .

المصادر

— Europa Publication Limited, The Middle East and Nortil Africa, 1966-1967. 13 th ed , Europa, London, 1966'

وقد اعتمد الكاتب على هذا المصدر اعتماداً أساسياً فى معظم أجزاء البحث الخاص بالسودان فيما عدا دراسة السكان .

— Oxford Economic Atlas of the World, Oxford Univ· pross London, 1965·

Reader's Digest 1968 Aimanao and Yearbook. 1967.

— عبد العزيز كامل ، توزيع المراكز الحضرية فى السودان . بحث مقدم للمؤتمر الجغرافى العربى الأول بالقاهرة . نشر بين بحوث المؤتمر التى تولى نشرها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية . المجلد الثانى ، القاهرة ١٩٦٥ .

— محمد السيد غلاب ، ومحمد صبحى عبد الحكيم ، السكان ديموغرافيا وجغرافيا ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٣ .

— محمد عوض محمد ، نهر النيل . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٢ .

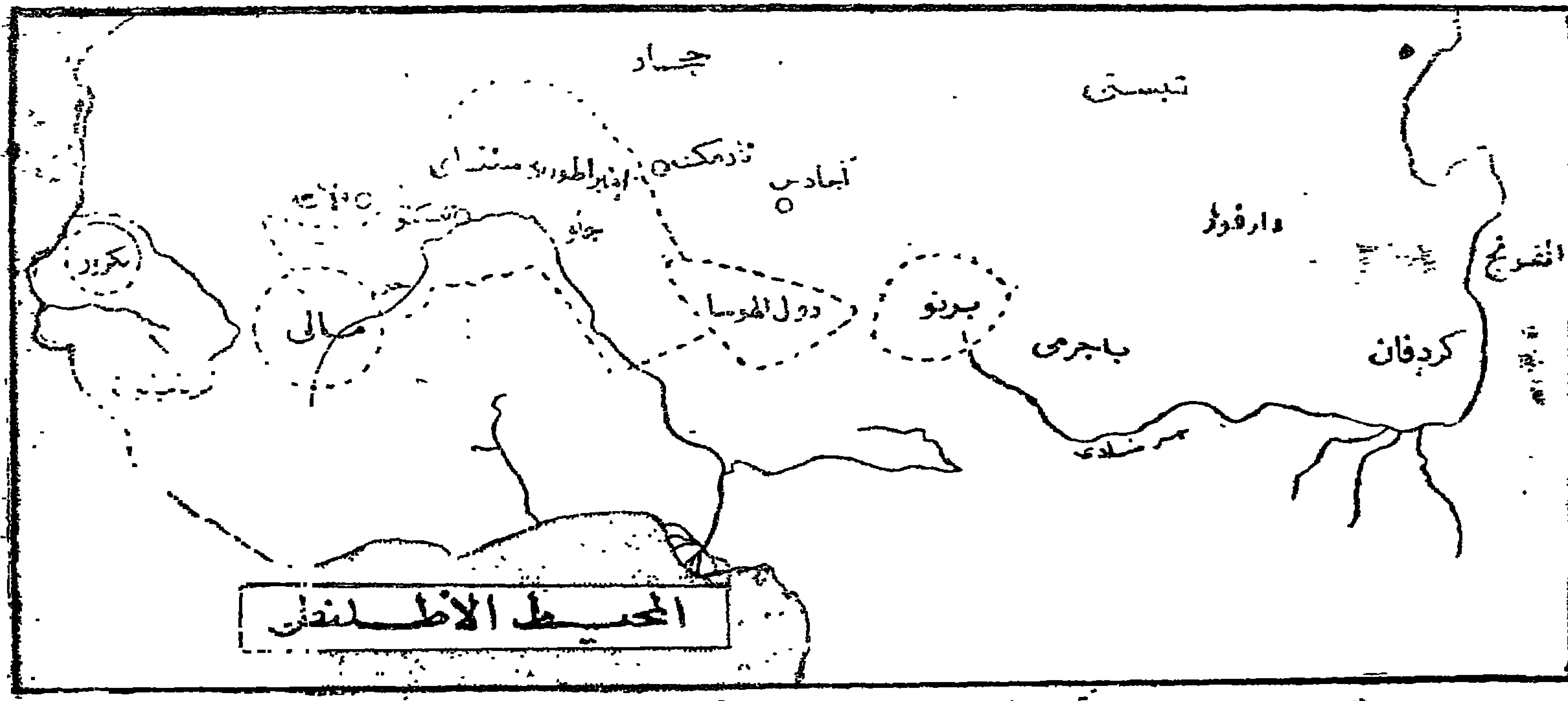
نيجيريا

الموقع :

تمتد جمهوريه نيجيريا الاتحادية على الساحل الغربى للقارة الافريقية مطلة على ساحل غانة ، وهى تقع بين دوائر العرض ٥٤ ، ١٤ شمالى خط الاستواء وبين خطى طول ٥٣ , ٥١٤ شرق خط جرينتش ، وتبلغ مساحة نيجيريا ٦٦٩ ر ٣٥٦ ميلا مربعاً (٧٧٢ ر ٩٢٣ كم٢) أى أقل قليلا من مساحة الجمهورية العربية المتحدة ، وتشترك فى حدودها الغربية مع داهومى وفى حدودها الشمالية مع جمهورية النيجر وفى الشمال الشرقى لنيجريا توجد بحيرة تشاد ، وأما حدود نيجريا الغربية فهى تشترك مع جمهورية الكميرون ، وأقصى امتداد شمالى جنوبى لنيجيريا هو ١٠٤٠ كيلو مترا واقصى امتداد شرقى غربى بها هو ١١٢٠ كيلو مترا وطول الجبهة البحرية لنيجبريا التى تطل بها على ساحل غانة هو ٨٠٠ كيلو مترا .

ومن ناحية التضاريس نجد أن المظهر المسيطر على السطح فى نيجيريا هو نهر النيجر وسهوله التى تبلغ اقصى امتداد لها فى جنوب نيجبريا حيث توجد دلتا نهر النيجر المتسعة ذات الفروع المتعددة والتى تبلغ اتساع قاعدتها حوالى ٣٠٠ كيلومترا (١٨٧ ميلا) وفى شرقى نيجيريا تبدأ المرتفعات فى الظهور مكونة سلسلة مرتفعات الكاميرون وآدماوا وتبلغ هذه المرتفعات اقصى ارتفاعها فى الجنوب الشرقى لنيجيريا ، بينما يقل ارتفاعها فى الشمال . . ومن هذه المرتفعات الأخرى التى توجد فى نيجيريا فهى توجد إلى الشمال من نقطة التقاء كل من نهر النيجر وهى عبارة عن هضبة تسمى هضبة جوس Jos وتعلو معظم أجزائها عن الالف متر . أما إلى الشمال من ذلك أكثر فتبدأ الصحراء فى الظهور وتظل هذه الأحوال الصحراوية سائدة حتى الحدود الشمالية لنيجيريا وتمتد إلى الشمال من ذلك فى جمهورية النيجر .

ونهر النيجر هو أطول أنهار غرب أفريقية حيث يبلغ طوله ٢٦٠٠ ميل (٤١٦٠ كم) ويمر بجميع المناطق المناخية فى غرب أفريقيا تقريبا ، وقد تعرض



٨ ـ الدول السودانية في غرب إفريقية في القرن السادس عشر

الطعام فقبض عليهم وجردهم من سلاحهم، ولما أدرك ذلك من كان وراء المعسكر هربوا، وفى الحال نصب ابن زرقون حاكما واتخذ لقب اسكيا ليحكم تنبكتو نائباً عن أحمد المنصور، ولكن رفض أهل سنغاى فى الجنوب هذا الحل (ولم تكن المنطقة الجنوبية قد أخضعت للمغاربة) واختاروا منهم ملكا ونصبوه عليهم، ولذلك كان هناك ملكان: أحدهما فى الشمال بزعامة الحكومة العسكرية المغربية، وثانيهما فى الجنوب لا يعترف بسيادة المغاربة، وكان ملك الجنوب هو الزعيم نوح الذى أصبح بعد اختياره ملكا على بلاده، وقد استطاع أن يشن حرباً متقنة ضد ابن زرقون فأضعف قواته.

اسكيا نوح (١٠٩٢):

فى تلك الظروف الحالكة التى مرت بسنغاى، بث نوح روح الوطنية والمقاومة فى صدور أبناء البلاد، وألف جيشاً سادته الحماسة لاستعادة الوطن، ولجأ إلى حرب العصابات مستفيداً بميزات بلاده واستطاع خلال أربعة أعوام أن يكبد الأعداء الأقوياء المسلحين خسائر فادحة، وفى ذات مرة تشابك الطرفان فى دندى، وكسب نوح نصراً معنوياً، وأخطأ ابن زرقون فقد تبعه، فلحقت به الخسائر الجسيمة، واستمر الحال هكذا حوالى عامين قاسى فى أثنائهما جيش المغرب كثيراً، وكانت الإمدادات لا تصله بسهولة، وأدرك أخيراً أنه أصبح فى نفس الموقف الذى مر بالقائد جودر. ومع ذلك تمكنت أخيراً بعض الإمدادات من الوصول إليه فقرر أن يسحب قواته بانتظام (١٠٩٣) إلى الشاطىء المقابل للنيجر (الأيسر)، ويقصد تنبكتو بعد أن يترك حامية فى جاغ.

واستمر وصول الإمداد من المغرب، وكان المنصور يستبدل القوات بين حين وآخر، ومع ذلك لم يستطع هؤلاء أن يفعلوا شيئاً. لقد سيطروا على المدن ولكنهم لم يسيطروا على غالبية المناطق، وعمت الفوضى فى كل مكان، واستمر الطوارق يغزون المراكز الصحراوية بالقرب من النيجر ويخربونها

بعد نهبها ، فقضى على الأمن والهدوء ولم يكن الجند المغاربة أقل من الطوارق في العبث والفساد .

ولذلك اتفق علماء وأعيان تمبكتو على إرسال وفد يمثلهم بصحبة أفراد أسرهم ومعهم ممتلكاتهم الخفيفة فساروا عبر صحراء القاسية حتى وصلوا إلى مراكش بعد ما أصابهم من الإعياء والأمراض فى أثناء حبسهم فى السجون ، وكان بينهم السيد أبو العباس أحمد بابا فقيه تنبكتو وعالمها الكبير وفى أثناء الطريق سقط عن الجمل الذى كان يركبه فانكسرت رجله . فلما وصل دخل على المنصور فى قصره ، ووجده قد اتخذ حجاباً بينه وبين الناس وهو من وراء الستار يتكلم ، فقال الشيخ أحمد بابا :

قال الله تعالى : «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب» وأنت تشبهت برب الأرباب ، وإن كانت لك حاجة فى الكلام معنا فانزل إلينا وارفع الحجاب عنا ، فنزل السلطان ، فقال له الشيخ : «أى حاجة لك فى نهب متاعى وتصفيدى من تنبكتو إلى هنا ، حتى سقطت من على ظهر وانكسرت رجلى؟ فقال له السلطان : «أردنا كى تجمع الكلمة» فقال له الشيخ «هلا جمعتها بتمللك الترك تلمسان» . وكانت قد سقطت فى يد الترك ..

وعلى أية حال فقد أساء حكام المغرب إلى سنغاى وأذلوا كبارها وصغارها مما جعل ضباط بن زرقون[1] ، يشمئزون من ذلك الحال ، وتبرم كثير منهم . ولذلك قرر السلطان أن يبدل زرقون بالقائد منصور ، ولما وصل هذا إلى تنبكتو أسرع بقيادة حملة إلى أمبورى الجبلية التى اشتهرت ببأس رجالها والتقى باسكيا نوح ، فغلبه المنصور وهرب مع جيشه وقيل إنه مات (١٥٩٥) وبموته انتهت المقاومة الوطنية فى سنغاى بعد حرب دامت أربع سنوات .

وفى عام ١٥٩٨ أمر السلطان جودر القائد ورجاله بالعودة إليه ، فكتب إليه يبعث من يقوم بإدارة البلاد فبعث القائد المصطفى الفيل ، وفى عام ١٥٩٩ عاد القائد جودر إلى المغرب .

---

(١) استشهد فى إحدى المعارك قبل وصول خلفه القائد منصور .

ثار شعب مالى ولكن تمكن القائد عمار من كبح الثورة .. وفى أعقاب ذلك كانت البلاد فى حالة غليان مستمرة ، فثارت الطوارق والفولة وقبائل سنغاى ، ثار هؤلاء ضد قوات المغرب المحتلة ، وحل الانقسام والشقاق بين قادة وحكام الجيش ، ثم ثار أحد الضباط وطرد القائد العسكرى محمود .

وفى عام ١٦١٢ اشتبكت قوات المغرب وسنغاى فيما بين دورى وأمبورى وتجنب الجيشان المعركة ،وأشيع أن قائد سنغاى قد ارتشى فأمر اسكيا أن تفحص جيداً ملابس هذا القائد ، فعثر الباحثون على قدر من الذهب أخفاها القائد الخائن ، فحكم عليه بالموت ثم استؤنف القتال

وأخيراً ضعفت الإدارة المغربية إلى حد أن القادة الباشوات اضطروا إلى دفع الجزية لملوك سيجو الوثنيين ، ثم استقلت حامية جاغ وجنى وغيرهما ولم يبق للباشوات إلا تنبكتو .

ولما ساءت الحال ، قرر مولاى زيدان أن يتخلى نهائيا عن سنغاى (١٦١٨)، وأن يدفن حلم والده المنصور الذى ذهب ضحيته ٢٣٠٠٠ نفس من خيار جيش المغرب ، لم يرجع منهم سوى قرابة خمسمائة جندى .. فقد ماتوا جميعاً فى السودان (الغربى) .

تفككت أوصال سنغاى ، وآل الحكم إلى رجال القبائل ، وتفشت الدسائس وعم الظلم البلاد ، وانتشرت المجاعة بصورة مروعة ، وفتك الموت بالأهالى إثر مجاعة فى عام ١٧١٦ دامت خمس سنوات .

* * *

رأينا الغزو المغربى يقضى على إمبراطورية سنغاى الإسلامية وأمنها ، ولم يستطع المغاربة بالرغم من الإدارة الصارمة أن يمدوا نفوذهم إلى ما وراء المدن

الرئيسية ، تنبكتو وجاغ وجنى . ولم يضعوا أيديهم على ثروة سنغاى . لاشىء من هذا ، فقد خسروا عدة آلاف من خيرة بنيهم ، وفقدوا عتادهم الحربى ، وتركوا مرارة وحسرة فى صدور أهل السودان ، مما كان له أسوأ الأثر خلال الأعوام التالية . . وهكذا أسدل الستار على أقسى ما تعرض له السودان من الغزو الذى جاء من الشمال . . ثم استعد لغزو أجنبى آخر ، قدم هذه المرة من سواحل المحيط الأطلسى ومن الجنوب . . . هو الغزو الأوربى .

الفصل الخامس

سلطنة كانم

(٨٠٠ – ١٤٣٢)

تسرد الأساطير أحداث التاريخ القديم لكانم ، وتتحدث بعضها عن قدوم هجرات متعاقبة أتت من الشرق والشمال الشرقى ، متبعة الطرق القديمة المؤدية من وادى النيل ، وربما جاء بعضها هاربين فى أعقاب الحروب وأحداث الدمار التى تلت سقوط دولة كوش فى سودان وادى النيل وغزوات أكسوم (الحبشة) وفتوح العرب . وعرف هؤلاء الأقوام بشعب سار ، وقد عاش فى الإقليم المحيط ببحيرة شاد فى شرقها وغربها فشيدوا عدة مدن ،وأجادوا صناعة الفخاريات وأتقنوا عمل التماثيل البرونزية ، وقد أثبت علماء الآثار أنه كان لهذا الشعب حضارة قديمة ، وهناك من قال بانتساب هذا الشعب إلى الهكسوس الذين غزوا مصر ، وهناك من يقول بأنهم من مهاجرى مملكة مرو القديمة التى نشأت فى السودان .

وعلى أى حال فإننا نلاحظ وجود ثغرة كبيرة بين العصر الذى استقر فيه شعب الساو والعصر الذى نهضت فيه كانم الوثنية حينما تألف شعب منسجم مستقر أتيح له أن يشيد حكومة ودولة فى القرن الثامن الميلادى ولم يكن فى هذه البلاد التبر الذى كان من أهم ثروة غانا ومالى ، ولذلك لم يكن شعب كانم هدفا لغزوات أهل الصحراء أو المغاربة ، وانفرد بالسيادة على طرق القوافل المارة بفزان فى شرقى الصحراء الكبرى وبين البحر المتوسط وتشاد وكذلك بوادى النيل .

كانم الإسلامية

وفى الفترة الواقعة بين عامى ٨٠٠ و ١٢٥٠ م هاجر قوم عرفوا باسم « الزغاوة » ، وهم شعب جمع بين الخصائص الزنجية والحامية وانتشروا فى بقعة رحبة امتدت من دارفور (غربى سودان وادى النيل) حتى بحيرة شاد وهى المنطقة التى عرفت باسم كانم منذ القرن التاسع ، وقد أشار إلى الزغاوة أهل كانم المؤرخ العربى اليعقوبى الذى كتب تاريخه حوالى عام ٨٩٠ (١) . وقال إنهم يعيشون فى أكواخ من القصب (الغاب) ولم تكن لهم مدن ، ويطلق على ملكهم « كاكازا » .

ونقابل الإشارة العربية الثانية إلى الزغاوة فى كتاب أبى عبيد الله البكرى المعروف باسم وصف أفريقية (٢) وهو يقول عنهم : وعلى بعد رحلة أربعين يوماً فى زويلة (فزان بالصحراء الكبرى تقع بلاد كانم وشعبها من الزنوج الذين يعبدون الأوثان ومن الصعب أن تزور بلادهم ويقال إن فى بلادهم بعض سلالة الأيوبيين الذين لجئوا إلى كانم فى أعقاب اضطهاد العباسيين لهم . هؤلاء ما زالوا يحتفظون بأنماط أزيائهم وعاداتهم العربية .

وقد أشار إلى بلادهم الرحالة ابن بطوطه وابن خلدون (تاريخ البربر فى القرن الخامس عشر) وكان الإسلام قد ساد كانم كلها .

---

(١) أحمد بن واضح اليعقوبى — التاريخ نشره المستشرق هو تسما بليدن ، ص ٢١٩ .

(٢) البكرى جغرافى عربى عاش فى القرن الحادى عشر الميلادى (١٠٤٠ - ١٩٠٤) بقرطبة ، وقد ترجم كتابه المستشرق دوسلين (باريس عام ١٨٩٠) ، أنظر ص ٢٨ - ٣٠ من هذه الترجمة ، واسم الكتاب الأصلى « الممالك والممالك » .

وفى بداية القرن الثانى عشر تعرض الزغاوة لهجرة من الطوارق (الملثمون) ومثلها من التبو (سكان هضبة تبستى) والتيدا . ولم تكن هجرة شاملة بل كانت على هيئة أرستقراطية حاكمة استطاعت أن تخضع شعب الزغاوة لسلطانها ، وكان الزغاوة قد دخلوا فى الإسلام حوالى النصف الأول من القرن الحادى عشر [١] ثم انجبت هذه الأرستقراطية أول أسرة مالكة سيطرت على المنطقة الواقعة شرقى بحيرة شاد وأسست سلطنة كانم وأطلقت الأسرة الزغاوية على نفسها أسم بنى سيف (السيفية)[٢].

وقد اتسم حكم كانم فى أيام السيفية بالإقطاع القبلى ، وكان فيها مجلس الشورى يتألف من اثنى عشرة شخصاً يشرفون على تنفيذ أوامر الأمبراطور وكان هؤلاء جميعاً ينتمون إلى الأسرة الحاكمة ويعملون فى مجلس الشورى مدى الحياة ، ولما اتسعت أطراف إمبراطورية كانم ونمت مصادر ثروتها اشتد الخصام بين هؤلاء ، وتحول إلى معارك حامية ، فانصرفوا إلى القتال من أجل المحافظة على حقوقهم بالرغم عن أن تلك الحقوق كانت هبة من الإمبراطور .

كان السيفية رعاة من البدو الرحل غزوا وامتصوا بعض قبائل التبو فى الشمال والبربر والكانمبو (شعب كانم) ثم أسموا كما قلنا دولتهم فى كانم وجعلوا قاعدتها فى نجمى .

إن ما وصلنا من المعلومات عن الملوك الأول من السيفية مجرد أساطير والمعروف أن الفرع الرئيسى من أسرة سيف الأولى انقرض بموت من يسمى

---

(١) جاء فى بعض المراجع العربية الأخرى أن الإسلام دخل بلاد كانم ٥٠٠ هـ - ١١١٦ - ١١١٧ م .

(٢) حسن محمود : الإســـلام والثقافة العربية فى أفريقية ص ٢٣١ ، أنظر أيضاً .

« سلمة »(١) ، ثم انتقل إلى فرع آخر من الأسرة نفسها استمر الحكم في قبضته حوالى ألف عام ، وكان السلطان منذ أيام الوثنية يلقب ماى .

* * *

تتفق كلمة غالبية المؤرخين وفى مقدمتهم المؤرخ أورفوى على أن أول حكام كانم الذين اعتنقوا الإسلام هو ماى هوميه المعروف أيضاً باسم هومية جيلمه الذى حكم البلاد فيما بين ١٠٨٥ — ١٠٩٧ م وبعد أن اعتنق أهل كانم الإسلام فى ذلك القرن (الحادى عشر) اكتسبت دولتهم أهمية كبرى وبسطت سلطانها على بعض قبائل السودان الشرقى إلى حدود مصر الجنوبية الغربية والنوبة ، وقد ذكر البكرى الذى عاش فى القرن الحادى عشر أن كانم فى زمنه امتدت حتى نهر النيجر غرباً ، وأنها كانت تضم بقعة من بلاد الهوسا (شمال غربى نيجيريا) واستطاع أهلها أن يضموا أو يخضعوا جزءاً كبيراً من الصحراء فى نهاية القرن الثانى عشر .

وتولى الحكم بعد هوميه جيلمه ابنه دونمة دبلمة (١٠٩٨ - ١١٥٠) وكان أول من حج من ملوك كانم ، حج مرتين وفى المرة الثالثة غرق بالقرب من المياه المصرية « السويس » . وكان دونمة طموحاً جداً دفع حدود بلاده الشرقية إلى شواطىء النيل الوسطى ، وكان له الإشراف المطلق على مسالك التجارة إلى الشمال حتى فزان . وفى أيامه تأزمت روابط الأسرة الحاكمة ، وبدأ التفكك ، فشبت حرب أهلية أشعلها أبناؤه ، فانسحب كل منهم إلى إقليمه ، وبالرغم من ذلك انتصر دونمة دبلمة عليهم . وخلفه ابنه برى الأول (١١٥٠ — ١١٧٦) وكان ضعيفاً أودعته أمه السجن ، وتولى بعده بكرور (١١٧٦ — ١١٩٣) ويعرف أحياناً باسم عبد الله بن بكرور .

---

(١) غزا سلمة هذا منطقة فزان حوالى ١١٩٤ — ١٢٢١ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية — مادة برنو .

وجاء بعده السلطان عبد الجليل (١١٩٣ - ١٢١٠) الذى لقب بسلمة «مسلمة أحياناً» لشدة سواده، فأخضع القبائل المجاورة بعد أن دعم قواعد دولته على أسس قوية. وبعد وفاته حكم البلاد عدد كبير من السلاطين وكان الضعف قد تطرق إلى البلاد قبل نهاية القرن ١٤ ، ولاسيما بعد أن تعددت هجمات قبائل البولالا عليها، وكان من نتائج ضعف كانم تغلب أهل فزان عليها. ويعتبر إدريس بن إبراهيم الذى حكم حوالى ٢٥ سنة من أقوى سلاطين كانم. تغلب على شعب ساو، وقاتل البولالا دون أن يحرز نتيجة، والسلطان عثمان بن إدريس الذى مات فى عاصمته نيجى وهو يقاتل البولالا. وفى عهده توثقت العلاقات بين كانم (وبرنو) ومصر أيام المماليك. ويشهد على ذلك رسالة تبودلت بين السلطان عام ١٣٩١ والسلطان برقوق(١).

استمر البولالا سنين طويلة يضايقون ويعتدون على كانم حتى اضطر سيف إلى الالتجاء إلى الأراضى التى تعمها المستنقعات فى إقليم السو، واستمروا يغيرون مقر حكمهم أمام مطاردات أعدائهم. وانقسمت الدولة إلى عدة دويلات صغيرة تتابع على حكم كل منها حكام ضعاف، ولكن حدثت صحوة مؤقتة على أيام السلطان على جاجى «غازى» الذى تولى حكم البلاد فيما بين ١٤٧٢ و ١٥٠٤ ، فشيد عاصمة جديدة أسماها «برنى بجازا وجامو» غربى بحيرة شاد واستطاع ابنه ماى إدريس أن يهزم البولالا ويستعيد عاصمة كانم الأولى «نيجمى».

ولكن انتهت فترة الصحوة القصير، ففى القرن الخامس عشر نهضت دويلات للهوسا وبدأ مركز الثقل يحول إليها ولاسيما فى برنو.

ويمكن القول بأن كانم قد أفل نجمها فى القرن السادس عشر ومنذ ذلك

(١) المرجع السابق ص ٢٢٦ - ٢٣٧.

الحين أصبحت جزءاً من برنو ، وليس برنو جزءاً من كانم ، وفى الوقت نفسه بدأ نجم برنو يسطع فى وسـط أفريقيا حتى وصلت إلى مكانة إمبراطورية زاهرة .

وقد ذكر القلقشندى [1] ، أن الكانميين اتبعوا مذهب مالك ، وشيدوا مدرسة للمالكية اتخذوها مركزاً للثقافة الإسلامية ، وكانوا يرسلون أبناءهم إلى الأزهر للتفقه فى شئون الدين . وقد برع أهل كانم فى التجارة ، وكانت لهم مراكز تجارية فى مصر والسودان وثغور البحر الأحمر .

(١) صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٨٠ — ٢٨١ .

الفصل السادس

بجرمى وواداى

يعتبر بجرمى من بلاد السودان الوسطى ، ويقع فى شرق بحيرة شاد ، وبجرمى بلاد خصبة ويطرأ عليها الجفاف أحياناً ، ويزرع فيها الدخان والفول وينبت الأرز فى المستنقعات ويندر فيها القمح . وتكاثر فيها المراعى الصالحة لتربية الماشية ، وينمو فى بجرمى تمر الهند واللوز والقطن والنيلة ، وفيها يعيش الفيل والزرافة والفهد وفرس البحر ، وتتكاثر على ضفاف الأنهار أو فى جـوارها .

ويتألف أهالى بجرمى من العناصر الآتية :

١ — الباجرميون . وقد نشئوا من اختلاط السكان الأصليين بالفاتحين .

٢ — الكانورى : ويعيش فى مختلف بقاع البلاد .

٣ — العرب : ويعيشون فى القرى .

٤ — الفولة : وغالبيتهم رعاة .

٥ — القبائل السوداء : ومعظمهم وثنيون .

نشأت بجرمى فى القرن السادس عشر على يد المغامرين الذين أتوا من الشرق ، وهزم هؤلاء القادمون شعب البلالة ثم اندمجوا فيهم ، وتمكنوا بواسطتهم من بسط سلطانهم على قبائل الفوله وعلى جماعات العرب . وفرض الفاتحون الجزية على هؤلاء جميعا ثم اعتنقوا دينهم(١) . وتقول الروايات الوطنية : ان زعيم الفاتحين ، « دوكنج ».

---

(١) لم يخضع أهل بجرمي لكانم أو شعب البلالة ولكنهم كانوا يدفعون اليهم الجزية احيانا .

أسس السلطان « برنى بسى » مدينة ماسينيا حوالى عام ١٥١٣ ، وكان « برنى بسى » أول سلطان لبجرمى ، حكم ما بين ١٥٢٢ — ١٥٢٦ ، ولقب أحد خلفائه مالوا (١٥٤٨ ١٥٦٨) نفسه بلقب سبانج وخلف مالو ابنه عبد الله (١٥٦٨ — ١٦٠٨) ، وهو الذى أدخل الإسلام إلى البلاد . ومع ذلك ظل الشعب على الوثنية ، وعلى أيامه امتد نفوذ بلاده إلى البلاد المجاورة .

ومن خلفائه برجمنده (١٧٣٤) . وكان محاربا عظيما قاد حملة ضد البوركو (واداى) والكاوار ، كما أنه هزم بعض القبائل المجاورة التى كانت تهدد البلاد ، ثم خلفه علوى (١٧٣٩ — ١٧٤١) ، وقد هزمه إمبراطور بربو ، وأصبحت بجرمى تحت سيادته الإسمية ، ومع ذلك فقد تمكن السلطان محمد الأمين (١٧٥١ — ١٧٨٥) من خلع تلك السيادة . فاستعادت بجرمى نفوذها الماضى . ثم حج الأمين ، وفى أيامه تغلغل الإسلام فى البلاد .

وفى أيام السلطان عبد الرحمن جوارنج الأول (١٧٨٥ — ١٨٠٦) تجدد النضال بين بجرمى وسلطان واداى ، واسمه سابون ، فخربت البلاد ، وتمكن قائد جيش السلطان عبد الرحمن من قتل مولاه ، ودب الخلاف عقب موته بين أولاده ، واضطربت الفتن فى البلاد مما دعا إلى تدخل واداى فى شئون بجرمى ، ثم اعتلى عثمان بن برجمنده (١٨٠٧ — ١٨٤٤) أكبر أبناء عبد الرحمن العرش آخر الأمر ، غير أنه اضطر إلى أن يدين بالولاء لسلطان واداى ، وأن يدفع له الجزية ، وأصبحت بجرمى على أيامه ميدان تنافس شديد بين واداى فى الشرق وبرنو فى الغرب ، فازداد خراب البلاد ومما زاد الطين بلة تلك الغارات المتتالية التى كان يشنها عليها قناصو الرقيق من فزان . وبالرغم من تلك المصائب المتلاحقة استطاع عثمان أن يثبت أمام تلك العواصف العدائية ، وكان حاكما مقتدراً لا يرعى قانونا أو عرفا ، يسلب أصدقاءه وأعداءه على السواء .

وتولى ابنه عبد القادر (١٧٤٦ — ١٨٥٨) حكم بجرمى ، وقد حاول

العيش بسلام مع جيرانه ، وقصر همه على شن الغارات على القبائل الوثنية ، وفى أيامه ظهر داعية دينى اسمه ابراهيم شرف الدين ، ما لبث أن التفت حوله كثير من أهل البلاد ، فلما خشى عبد القادر العوافب خرج على رأس جنده لقتال الداعية ، ولكن الجند لم يستجيبوا لأوامر السلطان ، ورفضوا اطلاق النيران عليه ، وقتل عبد القادر فى تلك المناوشه .

وعاد أهل واداى إلى غزو بجرمى ثانية (١٨٦٠ – ١٨٧٧) فى عهد السلطان أبى سكين ، وفتحوا ماسينيا ، وطردوا السلطان وأقاموا مكانه واحد من أبناء عمومته ، وتمكن أبو سكين من استعادة عرشه عام ١٨٨٢ وظل يحكم حتى وفاته عام ١٨٩٤ ، وفى أيامه ساءت أحوال البلاد وأقفرت أرضها من الزراعة ، وتولى بعده (جوارنج) الثانى الذى وقف ليصد غارات عدو جديد اسمه رابح ، الذى كان قد وطد سلطانه فى برنو وأصبح قادرا على تهديد سلامة بجرمى ، بل تمكن أن يطويها ويغلبها على أمرها (١٧٩٢-١٨٩٧) فلم يكن أمام جوارنج إلا أن يقبل الاعتراف بالحماية الفرنسية ، وأثار هذا الاتفاق حنق رابح فهاجم جوارنج ، ولما لم يستطيع هذا رد الهجوم عمد إلى ماسينية وأشعل فيها النار ، وهزم الحاكم برتونيه الذى أرسل لنجدته ، ولكن قوات القائد الفرنسى « لامى » تمكنت من هزيمة رابح وقتله عند « كسورى » فى ٢٢ أبريل ١٩٠٠ ثم أعيد الأمن إلى بجرمى ، ومنذ ذلك الحين دخلت فى نطاق إقليم شاد الحربى . وبجرمى اليوم تضمها جمهورية شاد ويقدر عدد سكانها بحوالى ٢٦٠٠٠٠٠ ، وعاصمتها فورت لامى وقد نالت استقلالها منذ ١٩٥٨ ، أما منطقة بجرمى فلا يزيد عدد سكانها على ٧٦ ألف نسمة .

ماسينيه :

كانت ماسينيه حاضرة بجرمى أهم مدينة فى البلاد إلى منتصف القرن التاسع عشر ، وقد شيدت شمال بحر أرجج ، وأحيطت بأسوار محيطها سبعة أميال ، وكانت دورها من الطين فيما عدا قصر السلطان ومسجداً بنى من الحجر

وخرب أهل واداى جزءاً منها ١٨٧٠ وهجرها أهلها بعد غزوة ثائر البطل رابح وهى تقع على الضفة اليسرى لنهر شارى ، ويقيم السلطان فيها .

الإسلام فى واداى

واداى اليوم إحدى مناطق جمهورية شاد المستقلة ، وهى تقع غربى دارفور بالسودان وشرقى بحيرة شاد ، وعاصمة واداى أبشر ، وقد احتل الفرنسيون بعض أجزاء واى عام ١٨٩٩ ، ثم أعلنوا الحماية عليها وأخضعوها لنفوذهم ، وواداى من الناحية التاريخية تتصل اتصالا وثيقاً بتاريخ دار فور وكانم وبرنو وبجرمى ، وبالرغم من ذلك فلم يعتنق شعبها الدين الحنيف إلا بعد تلك البلاد .

جاء ذكر واداى فيما كتبه الرحالة ابن سعيد المغربى عند كلامه عن منطقة بركامى (بور كو) ، وشعب الزغاوة القديم ، هذا الشعب الذى يحتمل أن تكون أراضيه قد وقفت مانعاً فى وجه الدعاة القادمين من الشرق (وادى النيل) .

وسكان واداى خليط من شعوب متعددة ، بالرغم من انهم ينتمون إلى مجموعة عرقية « جنسية » واحدة ، ويتكلمون اللغات ذات اللهجات المتقاربة ومن الصعب الاهتداء بسهولة إلى تاريخ واداى القديم ، ولم يذكر المؤرخ التونسى القديم شيئاً نعتمد عليه ، وإن كان قد عنى بذكر القبائل الخمس الأصلية التى تألف منها سكان واداى ، ونقطة البداية ترجع إلى أوائل القرن السادس عشر حينما قدمت قبائل التنجور الوثنية من درافور معتدية على واداى وقبلت الحكومة ثم جعلت عاصمة البلاد فى كادابة (جنوب غربى أبشر) .ويحتمل أن يكون التنجور من النوبيين الذين بعد اتصالهم بالعرب أصبحوا يتحدثون بالعربية (١) ، وقد استقروا فى دارفور فى اثناء القرن الخامس عشر واغتصبوا

---

(١) يذكر الرحالة الألمانى بارث أن شعب التنجور قدم من دنقلة ويؤيده فى ذلك جماعة من المؤرخين (ترمنجهام ص ١٢٩) .

السلطة من أصحابها ، وبقوا يحتفظون بسيادتهم حتى استولى عليها سليمان سولون حوالى ١٦٣٠ ، وأمام الأمر الواقع أضطر التنجور إلى الرحيل عن دار فور وانتشروا فى واداى فى اتجاه الجنوب إلى حدود بجرمى .

ويلاحظ أنه كان لبعض زعماء التنجور أسماء عربية ، وقد اعتنق هؤلاء الإسلام لكنهم لم يفرضوه على القبائل المتعددة لأنهم كانوا يستمدون منها الجزية بانتظام .

ويقال إن أول من دعا للإسلام فى واداى كان رجلا صالحاً اسمه صالح أو جامع ، وينسبه بعض الرواة إلى قبائل الجعليين فى شندى بالسودان وفى عام ١٦١١ تمكن عبد الكريم من أقارب ذلك الرجل الصالح أن يضم إليه اثنين هما مايا وفردوى ، وكانا قد أسلما على يد الصالح ، ثم اتسع نطاق هذه الجماعة واتفقوا فيما بينهم على رفع راية الجهاد الإسلامى ضد التنجور فأعلنوا القتال ضدهم وغلبوا زعيمهم داود ، وهكذا أصبح عبد الكريم زعيم الجماعة الإسلامية فى واداى ، وسرعان ما جعل (دارة) « شمال غرب أبشر » مركزاً للدعوة الإسلامية ، وقبضت أسرته على أزمة حكم واداى من عام ١٦٥٥ إلى عام ١٩١١ . وكانت واداى فى بعض السنين امتداداً لحكومة دارفور أو برنو ، وكانتا تهددانها بإعادة حكومة التنجور إذا تخلت عن هذه أو تلك . وبالرغم من هذا السيف المسلط . حاول بعض سلاطين واداى التخلص من هذا التهديد ولكن دون جدوى ، حتى تمكن السلطان محمد جودة (١٧٤٥ — ١٧٩٥) من ذلك ، واستطاع أيضاً أن يرسل عدة حملات ضد الوثنيين فى جنوبى البلاد ، وفى أخريات القرن الثامن عشر استولى السلطان محمد صالح على منطقة بحيرة فترى ووصل إلى كانم .

وفى خلال الفترة وفد بعض الفقهاء من مملكة الفونج « سنار » ليعلموا المسلمين فى واداى ، ومن هؤلاء : أبو زيد عبد القادر الذى عاصر حكم السلطان يعقوب العسرى (١٦٨١ - ١٧٠٧) ، وأبو سرور الفاضلى الذى قتله بعض

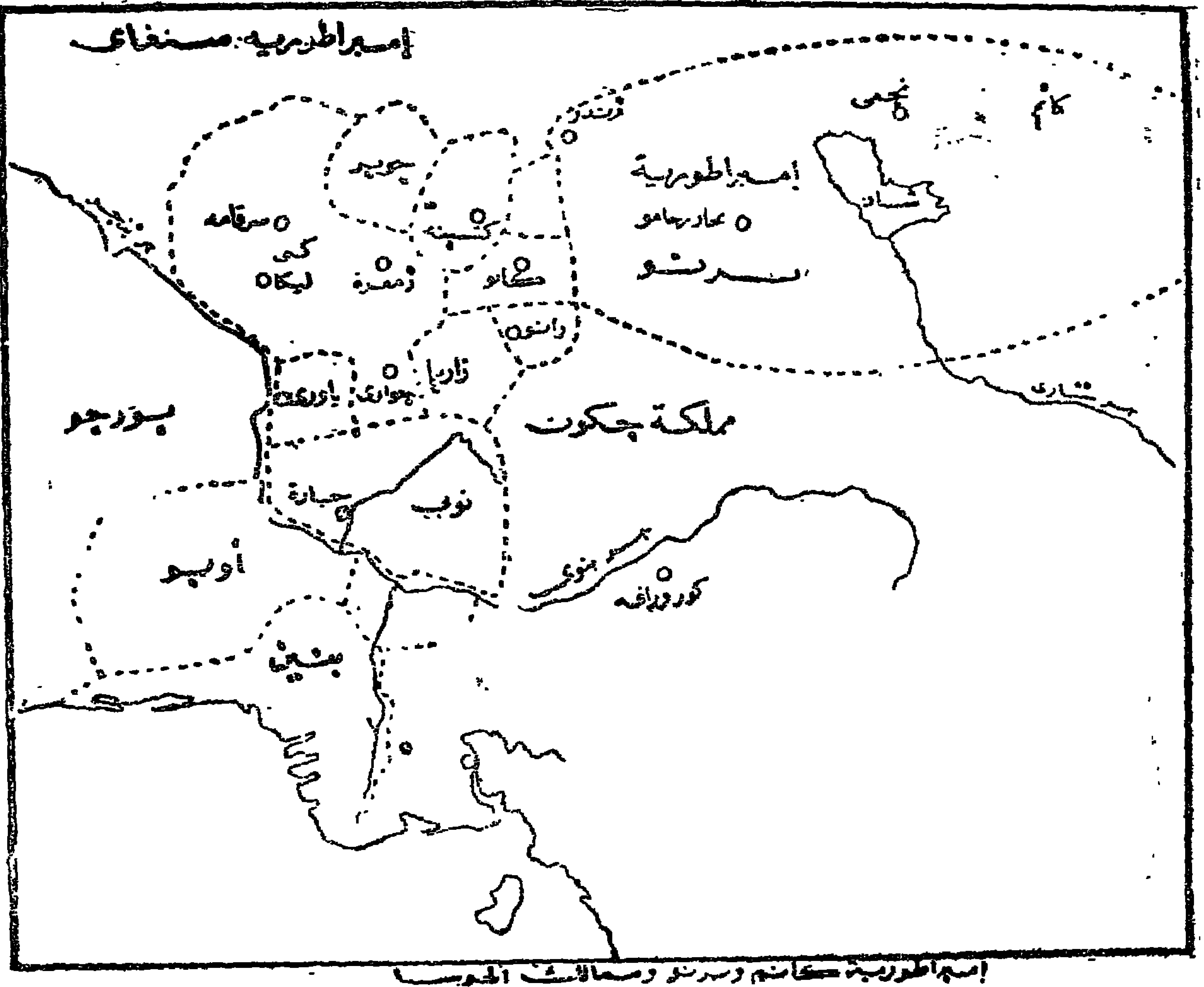
أبنائه فى وادای ، وكانت وادای تبعث ببعض طلابها إلى السودان ومصر للتزود من مناهل العلم .

وفى أوائل القرن التاسع عشر تمكن عبد الكريم سابون (١٨٠٣ — ١٣) من خلع أبيه عن العرش وحكم البلاد ، وقد حاول محمد الأمين الكانمى أن يستعين به لتخليص بجرمى من سلطان برنو ، ففعل ذلك وضم بجرمى إلى وادای ، وقد نجح عبد الكريم فى فتح طريق جديد للتجارة عن طريق برقة وطرابلس ومصر ، وشجع التجار الوافدين إلى بلاده[1] .

وخلفه ابنه يوسف (١٨١٤ — ٢٩) وكان قديراً ونشيطاً كأبيه ، ولكنه كان ظالماً متعسفاً ، وقد اغتيل — وخلفه محمد عبد العزيز (١٨٣٠ — ٤٣) ثم محمد شريف صالح (١٨٤٣ — ١٨٥٨) شقيق السلطان سابون الذى جرد حملة ضد برنو وجعل قاعدة حكمه فى أبشر بدلا عن دارة . وتولى فى أعقابه عدد آخر من السلاطين ، وتولى فى نهاية الأمر السلطان داود موره (١٩٠٢ — ١٩١١) وفى عام ١٩٠٩ احتل الفرنسيون أبشر . ثم ضموا بقية البلاد إلى نفوذهم فى أعقاب التخلص من إمبراطورية رابح الزبير[2] .

---

(١) راجع الكلام عن بجرمى لارتباط العلاقة السياسية بينها وبين وادای .
(٢) راجع ما كتب عن رابح الزبير فى كتاب إمبراطورية رابح الزبير لمؤلفه سعد الدين الزبير ، القاهرة ١٩٥٣ .



إمبراطورية كانم وبرنو وممالك الهوسا

الفصل السابع

برنو (١٥٠٧ - ١٨١٩)

برنو واحدة من دول السودان الأوسط الإسلامية . كانت تحد شمالا بالصحراء الكبرى ، وغربا ببلاد الهوسا ، وجنوباً بأداموة ، وتحد من ناحية الجنوب الشرقى بسلطة باجرمى ، وشرقا ببحيرة شاد ، وهذه الحدود لم تكن دائما ثابتة خلال تاريخ برنو ، ولكنها تغيرت وتعدلت كثيراً تبعا للاحوال والظروف التى مرت بها .

ذكر برنو مؤرخون وجغرافيون من العرب ، كابن سعيد الرحالة المغربى (النصف الثانى من القرن الثالث عشر) ، والمقريزى ، وابن خلدون . وتكلم عنها بإفاضة الرحالة الحسن بن محمد الوزان (ليون الأفريقى) فى كتابه المشهور (وصف إفريقية) ، وقد استقر الحسن بتلك البلاد أمداً وجيزاً فى بداية القرن السادس عشر .

تألف سكان برنو من عدة أجناس مختلفة ، أهمها الكنورى ، وكانوا العنصر الغالب فى ناحية العدد والسلطان السياسى . وقد اعتنق هؤلاء الإسلام منذ أمد بعيد ونشروه بين القبائل الوثنية (وربما تنسب إليه كانم الدولة الإسلامية السابقة فى تلك الجهات . وبين الكانورى . القبائل الوطنية المتميزة عن الكاتورى فى اللغة والعادات، ثم الأعراب : ويطلق على العرب الذين كانوا يمكثون فترات قصيرة ، ثم القبائل المختلفة من الطوارق والفلانة ، وهم الفولة والهوسا الذين اختلطوا بالكنورى .

ويتكلم أهل برنو عدة لغات ، لغة الكنورى أوسعها انتشاراً وبعض

اللغات السودانية ، والإسلام هو الدين السائد فى برنو ، وقد دخل فى العصور الوسطى على يد الفاتحين الذين جاءوا من كانم والذين كانوا قد اعتنقوا هذا الدين قبل ذلك بعدة قرون ، فاعتنقه السلطان والأشراف وسكان المدن الكبرى .

وقد دهش الرحالة العرب الذين زاروا برنو من وجود نظام سياسى أرقى بكثير مما كان فى بلاد السودان الأخرى « بل إنه يشبه من وجوه عدة النظام السياسى الذى كان سائدا فى الدول الأوروبية فى العصور الوسطى ، وكان سلطان برنو يلقب بماى ، إلى أواسط القرن التاسع ثم قنع السلاطين بعد وفاة آخر الحكام من الأسرة السيفية عام ١٨٤٦ بلقب « شيخ » الذى كان يلقب به محمد للكانمى ، وهو رأس الأسرة الجديدة التى تولت الحكم. وقد حكمت الأسرة السيفية « نسبة إلى سيف بن ذى يزن » إلى منتصف القرن التاسع عشر ، وقد نقلت هذه الأسرة مقر الحكم إلى الضفاف الغربية لبحيرة شاد بعد أن حكمت فى كانم عدة قرون .

ويعتبر القرن السادس عشر أزهى العصور فى تاريخ برنو ، ولا سيما الأعوام التى حكم فيها السلطان ادريس علومة ، وسنستعرض بإيجاز تاريخ هذه البلاد منذ أن وليها إدريس .

السلطان إدريس علومة (١٥٧٠ - ١٦٠٣)

ندين كثيراً للامام المؤرخ أحمد بن فرتوه ، فقد زودنا بكتابين : أولهما تاريخ مفصل لمولاه السلطان بن على « علومة » خلال الاثنى عشرة سنة الأولى من حكمه (١٥٧١ - ١٥٨٣) وثانيهما حروب هذا السلطان مع البلالة الذين دأبوا على غزو مملكته عدة سنوات .

وقد عثر على مخطوطة الكتاب الأول الرحالة الدكتور هنريخ بارث فى

كوكاوة عاصمة شيوخ برنو فى كانم حوالى سنة ١٨١٣ ، وقد أعطاه له الحاج بشير وزير برنو فى ذلك الحين ، فأرسلها بارت إلى وزارة الخارجية البريطانية ، وانتقلت بطريقة مجهولة إلى ألمانيا ، ثم صورت منها نسخ عديدة لخدمة الباحثين ، وبارث هو الذى أطلق على المخطوطة المذكورة العنوان الذى عرفت به منذ ذلك الحين[1] .

تشمل المخطوطة على أخبار الحملات الحربية التى شنها هذا العاهل من عام ١٥٧١ لما تبوأ عرش بلاده إلى عام ١٥٨٣ ، ما عدا حملاته فى كانم شرق شاد التى أفرد لها كتابه الثانى، ومن المحتمل أن يكون المؤلف الإمام أحمد قد كتبها حوالى ٩٩٠/٩٩١ — ١٥٨٢/٨٣ م ، وتمدنا هذه المخطوطة بصورة حية لما كانت عليه حالة المجتمع فى برنو أثناء أزهى عصورها التاريخية فى القرن السادس عشر ، حينما وقع معظم أقطار الشرق العربى تحت السيادة العثمانية .

يقول الإمام أحمد بن فرتوه فى مقدمة مخطوطته أنه ألف هذا الكتاب مقتدياً بالشيخ مسفرمة عمر بن عثمان الذى دون تاريخ مولاه المجاهد إدريس على بن أحمد بن عثمان بن إدريس ، ويذكر أحمد بن فرتوه أنه من قبيلة محمد بن مان (معن ؟) ، وأنه بدأ يؤلفه يوم الأحد فى الثالث من رجب فى برنى حاضرة برنو .

ونلاحظ أن ما كتبه الإمام ، لم يرتبه حسب السنين ، ويحدثنا قائلا :

كان أول ما أقدم عليه السلطان تأدية فريضة الحج ، ولما عاد عرج على برنو ، فلما وصل براق (برعق) ، أمر بنقل جميع محاربيها ليضعف شأن ديارهم وكان الفضل لانتصاره عليهم تسلح جنوده بالبنادق ، ثم انتصر على أهالى

---

(١) نشر هذان الكتابان فى اللغة العربية فى مطبعة أمير كانو فى نيجيريا عام ١٩٣٠ (أنظر أيضاً ترجمة الكتاب الأول باللغة الانجليزية التى قام بها المؤرخ البريطانى هـ . بالمر ، بعنوان :

History of the Twelve years of Mai Idris Alooms of Bornu .(1571—1533)

امساكه وانتقم منهم . وأصلح ما دمروه ، وأرغمهم على أن يتبعوا أصول الدين وأن يجعلوا العدل نبراساً لهم ، وأن يضعوا أمورهم في ذمة العلماء لا الزعماء وأن يتصفوا بالتسامح والإخاء وليس بالتنافر والعداء .

ثم انتقم مما ارتكبته نيجزيم وشعب مجولم وجزان وغيرهم ضد بلاده ، فحرق قراهم وأخضعهم لسلطانه ، ثم أرغمهم على استعمال المكاييل والموازين المعترف بها لكى لا يبتزوا أموال الأهالى أو يرهقوهم ، وشجع القوم على زراعة أراضيهم لكى لا تصيبهم المجاعة التى هددت بلادهم عدة سنين .

وتناول المؤرخ بعد ذلك حروب السلطان ضد قبائل سو وانتصاره عليهم بفضل مواهبه الحربية وما اتصف به من حدة الذكاء والمقدرة . حشد رجاله لمهاجمة سونجقاتا ، ومن أجل ذلك شيد بلدة كبيرة على مقربة من دامسك ، ونصب عليها قائده شتيمه بيرى وابنه عجيمه جسمه ، وكان لها أربعة أبواب جعل على كل باب حارساً كبيراً ، وخصها بحامية قوية ، وطلب إلى كل الزعماء الأقوياء أن يمدوه بالرجال ليشيدوا بيوتهم وأن يقيموا فيها مخازن للسلاح واصطبلات للخيول .

وبعد أن تم بناء المدينة أطلق عليهم إسم « سنسنه الكبير » ، وشحنها بالمجاهدين الذى ينطلقون كل حين لاقتفاء أثر الأعداء ، ويتخلصون منهم ، وشيد السلطان حصوناً أخرى فى أنحاء البلاد ، وشحنها بالجنود ، وأمر بقطع الأشجار التى كان يختفى وراءها جنود الأعداء . واشترك فى هذا العمل الكهول والنسوة والمرضى ، ومعهم طوائف الراقصين والمغنين والطبالين ولما انتهى السلطان من تحصين المواقع الهامة حشد المجاهدين ، وعرض قواته وهم فى ملابس القتال ، وكان الفرسان يمتطين الجياد المغطاة بالزرد والدروع ثم نشب القتال واستمر فترة طويلة انتهت بانتصار السلطان ومطاردة الأعداء ، وتمكن من تطهير برنو من قبائل سو .

ونقرأ فى المخطوط أخبار حملة السلطان ضد جدامة والهجوم عليها من جوانبها

وانتصاره على رجالها ، ثم نطالع أخبار هجومه على كانو وسيره نحو سهول مندسنة فانتقم من العدو فقطع عليهم خط انسحابهم ، وأحاط بهم من كل جانب وأبادهم ، فلم يستطيعوا العودة إلى برنو .

وبعد أن أدى فريضة الحج استمد حاجته من السلاح النارى من العثمانيين وقد أفلحت سياسته الحربية كما مر بنا ، فقد كان جندياً موهوباً مدركاً أسباب المنعة ، فنهض ببلاده ودعم علاقته بالدول الشمالية . فعل كل هذا بالرغم عن الأعوام الكثيرة التى قضاها فى مقاتلة أعدائه .

ومع ذلك فإنه لقى صعوبات كثيرة للسيطرة على طرق الصحراء حتى تم له احتلال واحة كوار فى طريق فزان ، وكانت غنية بمناجم الملح والنطرون .

وكان إدريس ملكا شهما أنجد عومته شعب سنغاى وهم فى محنتهم ، فى أثناء دفاعهم عن بلادهم ضد الغزو المغربى ، ويؤثر عنه أنه هدم جميع المساجد فى برنى . وكانت مشيدة من القش وبناها باللبن ، كما دعم الروح الإسلامية فى أنحاء البلاد .

خلفاء إدريس علومة

أخذ الاضمحلال يدب فى أوصال برنو فى القرن السابع عشر ، فقد كان عصر إدريس علومة شبيهاً بالصحوة التى توقظ الشعوب من نومها ولم يكن لخلفائه شأن هام ما خلا ماى على بن الحاج عمر رابع السلاطين بعد إدريس .

خلف إدريس ابنه محمد ، وكانت أيامه هادئة نسبياً ، ومات بعد أن حكم ١٦ سنة ونصف سنة ، ثم تبعه إبراهيم فالسلطان الحاج عمر بن قسام ،

وكان هؤلاء الثلاثة أبناء السلطان إدريس ، وقد اتصفت أيام حكمهم بالأمن والهدوء .

ثم اعتلى العرش السلطان على بن الحاج عمر (١٦٤٥ — ١٦٨٥) وكان محارباً قديراً ، أدى فريضة الحج ثلاث مرات ، ثم قاتل سلطان أغاديس قتالا شديداً ، وحاصره الطوارق والكورارافة فى عاصمته ، ولكنه نجح فى بث الفرقة بين أعدائه حين طرد الطوارق إلى الصحراء ، كما طرد الآخرين وقد حكم بلاده أربعين سنة .

وجاء بعده خلفاؤه : إدريس بن على ، ودونمه بن على والحاج حمدون ابن دونمه ، وقد عرف هذا بالشغف بالمطالعة ومات عام ١٧٣٨ .

وتولى بعده السلطان دونمه بن الحاج حمدون وقد فشت المجاعة فى زمانه ثم السلطان على بن الحاج دونمه ، وكان عادلا محبوباً بين الناس ، وكان يقرب العلماء إليه . وتولى بعده أحمد بن على ، فشارك العلماء فى دراساتهم وكان ديناً تقياً يخشى الله ، ولكنه غفل عن المغيرين على بلاده ، فتركهم يفعلون مايبغونه ، كما ترك الأهالى نهباً لقطاع الطرق، فأهملوا فلاحة الأرض وفتكت بهم المجاعة عدة سنوات .

وفى بداية القرن التاسع عشر عجزت برنو عن صد أعدائها الذين شنوا الغارات عليها ، وكان الأعداء الجدد شعب الفلبة (الفولة — الفلانى) ، وقد وقعت غارة هؤلاء فى أيام السلطان أحمد بن على ، فتمكن الفولة من إخضاع أقاليم الهوسة التابعة لبرنو .

الشيخ محمد أمين الكانمى

أنقذت برنو فى هذا الوقت العصيب بتدخل أجنبى عن البلاد ، هو محمد الأمين الكانمى ، وأصله من فزان، واشتهر بحكمته وورعه. وقد رفض مغادرة البلاد عند اقتراب الفولة ، وجهز جماعة صغيرة من الكانميين وعاق تقدم

الغزاة عند شرق بحيرة شاد ، ونجح آخر الأمر فى إجلائهم عن الجزء الشرقى من برنو بأكمله بعد انتصاره عليهم فى معركة حاسمة عند نكرنو ، فطلب السلطان أحمد عونه وترك له قيادة الجيش، فأعاده محمد إلى عاصمة ملكه ،وتوفى أحمد بعد ذلك فى عام ١٨١٠ .

حاول دونمه بن أحمد أن يستأنف القتال وحده ضد الفولة ، ولكنه هزم وفر من بلده إلى أخرى ، واضطر إلى الاستعانة بمحمد الكانمى ، وأعطاه فى مقابل ذلك نصف الأراضى التى يستعيدها من الأعداء ، وعلى هذا كان لبرنو حاكمان ، هما محمد الكانمى صاحب النفوذ الفعلى وقد لقب نفسه بلقب الشيخ وعاش فى نكرنو . وأحمد الذى كان يحكم بالاسم وكان مقره بربروا .

وأخيراً خلع عن العرش ونصب مكانه أحد أعمامه ، وقد رفض هذا تجرده الشيخ محمد من سلطانه وأعاد العرش إلى دونمه الذى احتفظ بلقب السلطان إلى أن توفى عام ١٨٠٨ .

وقبل أن نكمل أحداث برنو فى القرن التاسع عشر ، نذكر شيئاً عن جماعتين كبيرتين قدر لهما أن يلعبا أدواراً هامة فى تاريخ برنو والسودان الأوسط فى تلك الفترة ، وهما الفولة والهوسا .

الفولة والهوسا :

لقد كتبت مؤلفات كثيرة عن الفولة أو الفولبة أو الفلانة ... إلخ ، وكل هذه التسميات واحدة ، وهى قبائل مبعثرة فى أرجاء غرب أفريقيا من أهالى نهر النيجر حتى سنغال . والفولة إما رعاة مسلمون متنقلون وإما انهم يعيشون مستقرين بين شعوب غريبة عنهم كطابقة حاكمة ، حيث يكونون القوة السياسية المتسلطة فى نيجيريا الشمالية . ويبلغ عددهم المليون ونيف ، ويحتشدون بصفة خاصة فى مديريات سكوتو كانو وأداموة التى كانت تسمى فيما مضى بورلا .

أما الهوسا أو الهوصا فهم قوم من السود تقع بلادهم فى البقعة المحصورة بين الصحراء الكبرى فى الشمال وبرنو فى الشرق وثنية نهر النيجر فى الغرب والربوع الساحلية لخليج غانة وتوجوو داهومى وبنين والكمرون فى الجنوب ويصل تعدادهم إلى ١٥٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة ونيف .

وفى أقصى مواطن الهوسا فى الشمال نشأ بينهم الزعيم الكبير الشيخ عثمان فوديو قائد ثورة الفولة الكبرى فى القرن التاسع ، وسنتحدث عن زعامته فى فصل تال .

الفصل الثامن

إمبراطورية الفولة

وليدة الإصلاح الديني

قبل أن نتكلم عن حركات الاصلاح الدينيـة التى ازدهرت فى أخريات القرن الثامن عشر وفى القرن التاسع عشر بغرب أفريقيا ، نشير إشارة عابرة إلى مرحلة لانطلاق الاسلام فى أقاليم تلك المنطقة ، حينما وصل رجال القائد العربى عقبه بن نافع عام ٦٦٦ م إلى ودان ، وإلى جهة أخرى فى اتجاه واحة كوار فى الصحراء شمال بحيرة تشاد ، وتسرب الاسلام فى إثر ذلك إلى الشعب الحاكم فى دولة كوكو القديمة التى قامت على جانبى النيجر الأوسط .

وفى منتصف القرن الحادى عشر قضى المرابطون بفضل دعوة عبد الله ابن يس المباركة على سيادة دولة غانة القديمة ، وكانت حينذاك أقوى دول غرب أفريقيا ؛ ثم اعتنق حكامها الاسلام عقب انتشاره فى منطقة موريتانيا وفى ذلك الحين كان الدين الحنيف يتغلغل فى كانم وبوركو وباجرمى . ثم نهضت برنو دولة إسلامية كبرى فى أعقاب دولتى مالى وسنغاى الإسلاميتين وقد ازدهرت الحضارة العربيـة فى تلك الدول فيما بين القرنين الثانى عشر والسابع عشر ، ونهضت مراكز الإشعاع الإسلامى فى تمبكتو ، وجنى ، وجاغ ، وكانو — واشتهر فيها كثير من علماء الدين والتاريخ والأدب من أهل البلاد .

ومع ذلك فقد ظل المسلمون الذين يعيشون فى المناطق البعيدة عن المدن الإسلامية يجهلون حقائق الإسلام ، فكانوا فى أشـد الحاجة إلى من يرشدهم ويهديهم ... كانوا يخلطون كثيراً من الأباطيل والعقائد الفاسدة التى انطوت عليها أديانهم الأولى ، وكادت الوثنية تعود إلى شأنها القديم . وكان يبدو أن

المجتمع الاسلامى قد أصابته نكسة . ففى منتصف القرن الخامس عشر ، تأثر المسلمون فى وسط القارة وغربها بدوافع داخلية وخارجية . كان من أهمها نهوض الخلافة الإسلامية فى القسطنطينية ، وقضاء على الدولة المسيحية الكبرى بيزنطية . وصادف ذلك نشاط موفور نهض به دعاة الطرق الدينية الوافدين من المغرب ، وقد أثر هؤلاء تأثيراً ملحوظاً فى أمارات الهوسا الوثنية شمال نيجيريا ، وكان من أبرز الدعاة الفقيه التقى عبدالكريم المغيلى(١) ، (ت١٥٠٣م) الذى كتب رسالة دينية تلبية لرغبة سلطان كانو ، عرض فيها لألوان الفساد التى أصابت مجتمع الهوسا ، وانتشار المفاسد الدينية والدنيوية ، كان لكتابيه « الدر المنير فى علوم التفسير ، والتعريف فيما يجب على الملوك » أقوى الأثر فى تنوير الأذهان : وكذلك رسالة الإمام جلال الدين السيوطى (١٤٤٥ — ١٥٠٥) إلى بعض أمراء الهوسا وقد اشار فيها إلى مثل ما كتبه المغيلى . ومع ذلك فلم تستطع إمارات الهوسا التى كانت منقسمة على نفسها أن تغلب الوثنية نهائياً .

والجدير بالذكر ، أنه كانت هناك عدة عناصر ساعدت على اليقظة الإسلامية ، فبمرور الزمن على الفتح العربى (شمال أفريقيا) ، استعربت غالبية من أبرز القاطنين فى غرب المغرب ، على عكس البربر أو الطوارق الذين كانوا يقطنون فى الصحراء الكبرى فقد حافظوا على استقلالهم ولغتهم وعاداتهم ، وكان لابد من مرور سنوات طويلة حتى يتعمق الاسلام فى صدورهم ، ونلاحظ أن هؤلاء الطوارق واصلوا ضغطاً مستمراً على المنطقة الممتدة من

---

(١) أحد علماء تلمسان الكبار وشهد فى السودان الغربى أثناء القرن ١٥ ، وكان له أثر ملحوظ فى تفكير زعماء الاصلاح الدينى . انتقل إلى كانو وأصبحت له حظوة عند الحاج أسكا محمد سلطان سنغاى وذلك لما كان يسديه إليه من الآراء الحكيمة فى السياسة والإدارة ألف له رسالة أو اثنتين وقد نشر إحداهما بلدوين المستشرق البريطانى فى بيروت عام ١٩٣٢ بعنوان إلتزامات الأمير . Obligation of the Prince

نهر النيجر الأوسط إلى بحيرة تشاد التى تعرف بالسهل الأوسط دون أن يكون لهم أى أثر إسلامى ملحوظ .

ونهضت فى القرن الخامس عشر والسادس عشر حركة للدعوة ، انبثقت من منطقة الساقية الحمراء (الصحراء الإسبانية) ، وغيرت تماماً من موقف البربر إلى الإسلام ، وكانت تهدف هذه الحركة إلى تأليف مجموعات من القبائل تعتمد على التنظيم الدينى ، مما جعلها تعتبر نفسها طبقة ارستقراطية تعويضاً عن فقدانها الحرية السياسية . وأكثر من ذلك ، زادت هذه القبائل بتجنب استخدام الأسلحة ، واعترف بهم كفروع من القبائل العربية . على أنه كانت هناك قبيلة عربية واحدة ، كان لها أثر عظيم فى منطقة جنوب الصحراء ومنطقة النيجر الوسطى على إسلام الزنوج . وتلك هى قبيلة كونتا التى هاجرت فى القرن الخامس عشر من موطنها فى توات (Twat) إلى أطراف تمبكتو ، ومع مرور الزمن انصهرت هذه القبيلة العربية الأصل وأصبحت قبيلة مغربية تدين إليها الطريقة القادرية بانتشارها فى غرب أفريقيا ضمت كثيراً من الصالحين الذين أحرزوا شهرة واسعة ، وأصبح لزعمائها مهمة الوساطة بين القوى المتصارعة : الطوارق والفولة والزنوج فى منطقة تمبكتو الإسلامية .

هذا هو العنصر الأول - عنصر القبائل المغربية فى نهضة الروح الإسلامية فى غرب أفريقيا . أضف إليه العنصر الثانى وهو الدور الذى اضطلعت به الطرق الدينية وفى طليعتها القادرية والتيجانية فقد كان انتشار هاتين الطريقتين ولاسيما التيجانية عظيما جداً فى مستقبل القرن ١٩ . ومع أن القادرية كانت قد دخلت إلى غرب أفريقيا فى القرن ١٥ . ولكن تدفق نشاطها فى القرن ١٩ ولم يمض زمن طويل حتى برز فقهاؤها وتلاميذهم ينتشرون فى أنحاء السودان الغربى من السنغال إلى مصب النيجر يؤدون واجباتهم على خير وجه ويكسبون المريدين الكثيرين . ثم قامت الطريقة التيجانية منذ القرن ١٨ تناهض الطرق الأخرى ولاسيما القادرية ، وتميزت بإيجابيتها واستخدام القوة فى دعم الدعوة ولم تكتف بوسائل القادرية الهادئة ، وعلى العموم فقد أصبح الانتساب إلى إحدى الطريقتين ضرورة عند كل مسلم ولا غنى عن إحداهما .

وما دمنا صدد الكلام عن أثر الطرق الدينية فى النهضة الإسلامية . فى القرن التاسع عشر ، فلا نستطيع أن ننسى فضل أحمد بن ادريس (توفى عام ١٨٣٧) الذى نشطت حركته المباركة فى السودان الشرقى واتجهت غرباً الى واداى وباجرمى وبرنو ، ولما مات ، واصل تلميذه « محمد بن على السنوسى (١٧٨٧ — ١٨٥٩) دعوته التى أثرت تأثيرا مباشرا فى منطقة الصحراء الوسطى ومنطقة النيجر الوسطى حتى دمر الفرنسيون زوايا أتباعه .

ولقد استمدت القادرية نشاطاً غير عادى بفضل الشيخ سيد الكبير (١٧٨٠ — ١٨٦٨) . وحفيده الشيخ سيد الصغير (١٨٦٢ — ١٩٢٤) ، أحمد بامبا (وتوفى عام ١٩٣٧) الذى أنشأ طريقه المريدية المتفرعة من أكثر من نصف مليون من المسلمين ، غالبيتهم من قبائل الرولوف الوثنية (Woolof) .

أما العنصر الثالث فى نجاح الحركات الإصلاحية ، فهو ظهور عدد من الزعماء المسلمين حملوا رايات الجهاد ، الواحد بعد الآخر .

كاراموكو :

يقابلنا فى طليعة هؤلاء زعيما دينيا من الطراز الأول ، أخذ بيد قبائل الفولة فى منطقة فوتاجلون وهما ابراهيم موسى المعروف باسم كاراموكو أليفاً أو أليفا با (Karamoko Alifa Ba) . وثانيهما ابراهيم سورى (Sori) وقد انضم إليهم زعماء قبائل الفولة المهاجرون من منطقة ماسينا وجعلوا فوجوميا (Pogònbe) مركز النشاط مدارسهم الدينية ، وتعاهدوا فيما بينهم على الجهاد الدينى بين أهالى المناطق المحيطة بهم فنجحوا عدة سنين حتى دب الشقاق بين الفولة وزعماء سليمان (Solima) واستمر الصراع حتى عام ١٨٠٥ .

ولما توفى كاراموكو أليفا فى عام ١٧٥١ ، اتفقت كلمة القبائل على أن

التي بدأها عام ١٨٠٩ فأخضع الوثنيين في بلاده وقبائل المندارا Manparaوكان زعماؤها مسلمين اسميا ، ثم أسس مدينة يولا Yola على نهر بنوى وأقام الزوايا والمدارس الدينية ، ومات ١٨٤٧ / ٨ تاركا للفولة منطقة فسيحة امتدت من ماداجالى في الشمال إلى بانيو (banio) في الجنوب ومن نهر اينى (inei) في الغرب إلى ليرى (leri) في الشرق وقد وحد البلاد فجعلها متماسكة بعد أن كانت فوضى .

ومنذ ذلك الحين عرفت بلاده باسم أداماوا وغالبية سكانها اليوم من المسلمين .

جهاد الحاج عمر تال

ولد الحاج عمر بن سعيد تال في عام ١٧٩٧ في الواد بمنطقة فوتا السنغالية وقد نشأ في أسرة دينية فتلقى علوم الدين ثم أدى فريضة الحج عام ١٨٢٦ وهو في الثالثة والعشرين فأصبح من مؤيدي الطريقة التجانية ، وفي أثناء عودته إلى وطنه ، كان قد اكتسب شهرة واسعة ، فنال احترام الشيخ الكافي في برنو ، وفي سوكوتو ، تعرف على الشيخ محمدو بللو نجل الزعيم الشيخ عثمان دان فوديو المصلح الكبير ، فبقي عنده ثلاث سنوات واشترك أثناءها في جهاده ، وفي عام ١٨٣٨ أقام في منطقة ما سينا (M ssina)مع الشيخ أحمدو ثم ذهب إلى سيجو قاعدة النمبارة لكنه أبعد عنها ، فظل يطوف أنحاء كانكان سبع سنوات ، معلما ومرشداً وهاديا الناس ، وأخيراً وصل إلى دينجراى فطاب له المقام ، ودعم مركزه الديني فيما بين ١٨٤٥ - ١٨٥٠ وصار له أتباع كثيرون .

وقد نشطت دعوة الحاج عمر للطريقة التيجانية في منطقة فوتاجلون بين رجال الدين واستطاع أن يحولهم عن الطريقة القادرية ، وكان ذلك في عام ١٨٥٠ وحبب إليهم أن يهبوا للدعوة في ديجنواي ، فاجتذب إليه عددا كبيرا من قبائل الفولة في فوتا جلون وقد أصبحوا فيما بعد يؤلفون القوات الرئيسية في جيشه ، وهكذا ساعد على دعم العلاقات بين الفولة والتوكولور (Tokolor)

ولما أدرك أن الوقت قد حان للقيام بحركته الاصلاحية ، أعلن الجهاد ، ورأى أن يبدأ ذلك فى موطنه بفوتو تورو ، وكان قد زارها عدة مرات لينشر دعوته بالطرق السلمية ونجح فى اجتذاب التوكولور إلى صفوفه .

بدأ نشاطه بغزو بامبوك ، ثم دخل نيزرو عاصمة منطقة كارتا فى عام ١٨٥٤ ، وفى ذلك الحين وجه جهاده ضد حركات الاستعمار الأوربى ولا سيما الفرنسيين الذين كانوا قد وصلوا إلى خاصوا فى فوتا تورو وأحاطوا بعاصمتها « المدينة » (١٨٥٧) ، فلما لم يستطع رفع الحصار عنها وخابت مساعيه ، قرر أن ينسحب إلى الشرق ، ليقيم دولة مستقلة تتألف من مملكتى البمبارة وماسينا ، تاركا منطقة السنغال ، وسرعان ما استولى على عدة مدن أهمها نيورو فى الشمال ، وسافسا تدنج فى Sansbnciag ، وتيامينا Miamina ، وسيجو على نهر النيجر ، فقضى على مملكة البمبارة الوثنية وكان ملكها قد مات (١٨٦١) ، ثم تابع فتوحه نحو الشمال متتبعا النيجر وهاجم ملك ماسينا المسلم الذى كان قد امتنع عن مساعدته أثناء حصار الحاج عمر للمدينة ، واستولى على عاصمته حمد الله (١٨٦٢) ، ثم فتح مدينة تمبكتو ١٨٦٣ ، وكانت أقصى ما وصل اليه فى الشمال وهكذا نجح الحاج عمر فى إقامة دولة إسلامية كبيرة تمتد من بلاد التكرور حتى تمبكتو ، وبيد أن الحظ لم يواكبه فقد تحالفت عليه قبائل الفولة فى ماسينا وزعماء كونتا وهم أتباع الطريقة القادرية ، وفى أثناء نضاله استشهد الحاج عمر عام ١٨٦٤ فخلفه ابنه أحمدو الذى اتخذ سيجو عاصمة للدولة .

وبوفاته فقدت الحركة الإصلاحية أهم الزعماء الذين عرفوا فى أفريقيا فى فى القرن ١٩ ، فلو أنه نجح فى تحقيق مشروعه الكبير ، لأتيح له أن يؤلف وحدة كبرى من البلدان فى غرب أفريقيا بيد أن الاستعمار الفرنسى كان قد سبقه وعمل على بث عوامل التفرقة بين الزعماء ، وسادت الروح القبلية فى تلك المناطق . فعمت الفوضى ومن ثم تقدم الفرنسيون عام ١٨٨١ وطردوا أحمدو من ماسينا ، فهرب إلى بلاد الهوسا ومات بها عام ١٨٩٨ . فكانت دولته آخر

الدول الوطنية التى شهدتها أفريقيا الغربية قبل الاستعمار وفازت المنطقة بدعم الإسلام والطريقة التيجانية فيها ، كما انتشرت القادرية فى منطقة نفوذ عثمان بن فوديو وأحمد ولوبو .

وهكذا انتهت حياة بطل عظيما ومجاهد مسلم قبل أن يجنى ثمار عمله الصالح .

المجاهد الشيخ أحمدو

حمل الشيخ أحمد ولواء الجهاد الإسلامى بعد وفاة أبيه الزعيم الجليل الحاج عمر تال فى عام ١٨٦٤ والمعروف عن نشأة أحمدو ، أن والده عمر حينما عزم على فتح مملكة ما سينا ، تلك الحملة التى قتل فى اثنائها ، كان قد كلف ابنه النظر فى شئون مملكة سيجو وجعله خليفة له على اتباع الطريقة التيجانية ، وكان أحمد وذكياً ومثقفا ثقافة دينية ، كما كانت له كلمة مسموعة بين أتباعه ورعاياه ، بيد أن مشكلات التنافس فى الأسرة . والمتاعب السياسية التى تعرض لها كانت كثيرة ، قدمت للاستيلاء على بلاده .

وكانت دولة أحمدو الفسيحة تضم ممالك شتى ، منها سيجو وكارتا حيث قام اخوته الثلاثة فى ثلاثة مراكز عسكرية للدفاع عنها ، نيورو ، وكونياكرى ، وديالا إلى حاميات كونديان وموروجولا تلك المناطق التى لم يكن لمواطنى التوكولور وهم شعب الشيخ أحمدو ، الغالبية الساحقة ، فبدأت الدولة فى التفكك ، وحاولت قبائل البمبارة فى مملكة سيجو أن تخرج عن طاعته ، وواصلوا مقاومته وكذلك قبائل الفولة فى ما سينا التى كان أبوه الحاج عمر ضحيتهم . كل هذا جعل الشيخ أحمدو فى نضال مستمر ضد الخارجين عليه فلم يوفق فى كبح جماح البمبارة ، كما تآمر ضده زعماء متوكولور مع أفراد أسرته ، ثم كانت فتنة شقيقه حبيب ضده فى عام ١٨٦٨ ، وثار بعض أفراد التيجانية ضده غير معترفين بسلطته الدينية ، حينما اتخـــذ لقب أمير المؤمنين عام ١٨٧٤ .

وانتهز الفرنسيون الفرصة ـ فرصة انقسام الدولة ، وعبأوا قواتهم ، حول الشيخ أحمد وجهاده ضد الفرنسيين ، هذا النضال الذى اشتد فيما بين ١٨٦٥ ، ١٨٩٠ ، واستمر حتى ١٨٩٤ ، وتتابعت الحملات الفرنسية ضده بعد أن تعاون بعض الزعماء معهم ، فاستولوا على كيتا عام ١٨٦١ ، ثم باماكو على نهر النيجر عام ١٨٩٣ مما جعله يكتب إلى القائد الفرنسى محتجاً على تدخلهم فى شئون بلاده ، ولكن دون جدوى .

وفى ذلك الحين نشأ العداء الشديد بين أحمد والزعيم الدينى سابورى الذى كان نجمه قد سطع ، وهذا العداء يسر للفرنسين نجاح تقدمهم وانزالهم الهزائم بكل ملك وأمير على حدة ، ومما يؤسف له ، أن شقيقه عجيبو حاكم دينجواى تحالف مع الفرنسيين ضده ، فأدرك أن بقاءه فى سنجو أصبح خطراً عليه . فقرر عام ١٨٨٤ الذهاب إلى نيورو ، وخلع شقيقه والمنتقى عن الحكم ، ثم تخلى عنها فيما بعد وأخذ يشن المعارك ضد الفرنسيين ، فصمد أمامهم فى كثير منها ، حتى أضطر إلى الالتجاء إلى إحدى ولاياته فى ماسينا للقيام بعمل كبير ضد الفرنسيين الذين كانوا قد استولوا على سيجو فى ٦ إبريل سنة ١٨٩٠ .

ثم عبرت قواته نهر النيجر ، وتجمعت بالقرب من بانديا جارا ، ولكنها منيت بالهزيمة فى ٢٦ إبريل ١٨٩٣ . وكان الأهالى فى مدينة جى قد قاوموا هجمات الأعداء بصلابة . لكنهم لم يستطيعوا التغلب عليهم ، فانتهت سيادة التوكولور فى السودان الغربى ، وآل الأمر إلى فرنسا ، ولم ير أحمدو من الشهامة أن يستسلم المدوان ، ولذلك لجأ إلى سلطان موكوتو فنزل عنده ضيفاً كريماً ، وانتهت حياته عام ١٨٩٨ .

المجاهد أحمد ساموري توري

تفخر غينيا الحديثة بابنها البار المجاهد أحمد ساموري توري ، زعيم الحركة

الاصلاحيه التى نهضت فى جنوب سنغامبيا ، والتى أخذت طريقاً مماثلا لحركة الحاج عمر قال . وقد بلغت حركته الزروة فى عام ١٨٨١ ، بيد أن الاستعمار الفرنسى كان واقفا له بالمرصاد ، فقضوا على حركته وأسروه عام ١٨٩٨ .

حفظ أحمدو القرآن ثم اشتهر اسمه ، مقاتلا شجاعاً ، فأصبح زعيما تخشاه القبائل فأخذ فى إنشاء دولة الماندنكة(١) ، تقوم بديلا عن الدول المتناحرة فى المناطق التى كان يحكمها خلفاء الحاج عمر قال الزعيم التكرورى وليصد فى الوقت نفسه قوات الاستعمار الفرنسية الرابضة بالقرب من بلاده فاستطاع فى زمن قصير أن يضم إليه تلك الدويلات بعد سلسلة من المعارك وباستلائه على كالكان ، أصبح يعرف بلقب الإمام ، واشتهر بتقواه وحماسته الدينية ، فقضى على تقاليد الشعوذة والسحر والاعتقادات الوثنية الفاسدة ، وأمر بإنشاء كثير من الزوايا ، ومطالبة الأهالى بأن يرسلوا أبناءهم للمدارس الدينية ليحفظوا القرآن ، ويتلقوا مبادىء الإسلام وكان فى كثير من الأحيان يستوقف الأطفال فى الطريق ليمتحن معلوماتهم الدينية . ليس هذا فحسب ، بل إنه كان يأمر شيوخ القرى بأن يتعهدوا بزراعة قطعة من الأرض ليعود نتاجها إلى خزانة الحكومة ، كما أنه كان يأمر رجال الحكم بأن يعملوا على تعيين الموظفين دون النظر إلى قبائلهم وأصولهم العريقة . حتى يندمج الأهالى دون أن يؤلفوا عصبيات متناحرة .

وكان ساموري يعتقد فى تنفيذ أهدافه الدينية والعسكرية على جيش كامل التنظيم ، تألف من ٧ — ١٠ فرق كبيرة للولايات ، تقف كل فرقة مستعدة لرد أى اعتداء ضدها ، وكان نواة هذا الجيش فى بياند وجو .

وجهاد أحمدو الصامت ضد قوات الاستعمار صفحة رائعة من الوطنية التى

---

(١) قبائل الماندنكة فى غرب أفريقيا من شعب الماندى الشماليين ، كالبمباة والديولا والمونكة والكلسولكى والبرزو . وقد سدد المنطقة التى تتوسط حوض النيجر والساحل الأطلسى ، وانتشر الإسلام بينهم بنسبة كبيرة على مر المائة سنة الأخيرة .

تمتزج بالحماس الديني ؛ فقد بدأت معاركه ضد الفرنسيين عام ١٨٨١ واستمرت عملياته ضدهم في مدوجزر ، حتى استولوا على بيساندوجو قاعدته الحربية عام ١٨٩١ ، فاضطر أحمدو إلى التراجع إلى الشرق في منطقة غينيا العليا وأعالي ساحل العاج حيث ألف دولة أخرى ثم واصل كفاحه المرير بين عام ١٨٤٨/١٨٩٥ . وفي الوقت نفسه ، كان ابنه مساراتجي مورو يقود جيشاً آخر في فولتا السوداء حيث واجه البريطانيين .

وقد أظهر الزعيم أحمدو مهارة فائقة في قيادة جيوشه ضد أبرع القادة الفرنسيين الذين أوفدتهم فرنسا للقضاء على الروح الوطنية في غرب أفريقيا ولاسيما معاركه التي دارت فيما بين ١٨٩١ — ١٨٩٧ فتقدموا إليه بطلب الصلح، ولكن رفض كل جميع اقتراحاتهم لأنه أدرك فيها المساس بكرامته كزعيم أفريقي ، ولم يرض بوجود « مقيم » (Resiheut) فرنسي ، يتلقى منه التعليمات، فاضطرت فرنسا إلى إيفاد حملة كبيرة بقيادة الكولونيل « ارشينار » وتمكن هذا من زحزحة قوات الزعيم ، وأجبر أحمدو إلى الانسحاب نحو الجنوب ، ثم هاجم الفرنسيين ولكن تغلب هؤلاء عليه ، ومع ذلك فقد واصل جهاده .

وأخيراً وقع ساموري بعد حيلة دبرها الفرنسيون في أسر أعدائه وكان ذلك في ٢٩ سبتمبر ١٨٩٨ م عند جويليمو (Cuèlemou) ونقلوه إلى نيجولى (Niole) بجزيرة أوجوية (L Ogooue) بجابون حيث قضى نحبه عام ١٩٠٠ .

لقد شوه التاريخ الاستعماري سيرة البطل ساموري ، فصورة في صورة بشعة ، وجعله وحشاً شريراً محباً لسفك الدماء ، والواقع أنه كان لم يكن سوى الزعيم الديني والمجاهد الوطني الذي كان يهدف دائماً إلى تخليص وطن أجداده من عبث المستعمرين .

ثمرات حركة الإصلاح الدينية

كان من ثمرات حركات الإصلاح الدينية في غرب أفريقيا دعم نظم الحكم

الإسلامية بين القبائل المسلمة ، وتحسين أسلوب جباية الضرائب وانتشار العدالة، وتعميم التعليم ونشر اللغة العربية مع انتشار الإسلام ، وجاء فى أعقاب إجادة عدد كبير من العلماء الأفريقيين للغة العربية ، أن أسهموا فى الكتابة فى شتى أنواع التأليف : فى الدين والأدب والتاريخ ، كما نهضت جماعات من الفقهاء المتخصصين فى الدين ، أسهموا فى القضاء على "التقاليد الوحشية" والمعتقدات الفاسدة التى كانت متفشية بين الأهالى ، فحل مجتمع حضارى جديد مكان المجتمع البدائى القديم . ولم يقف فى سبيل ذلك الثورى الحضارى سوى "الأدغال الكثيفة"، فظلت فى ظلام لوقت ما حتى عبرها المعلم المسلم على دراجته حاملا "القرآن" وكتب التفسير فى شتى اللهجات .

وازدهرت الجمعيات الإسلامية والمراكز الدينية والمعاهد الثقافية التى أسهم العرب فى إقامتها . ولقد كان للحركة التى نهض بها عثمان دان فودو أثر عظيم فى تقدم أحوال المسلمين ليس فى نيجيريا فقط. بل وفى غرب أفريقيا وكانت هذه الحركة إعلاء للثقافة العربية فى تلك البلاد ، فلم تكن دعوة فى الدين مبنية على صوفية ، إنما كانت مبنية على حركة علمية وعلى دراسة أصيلة ذات أهداف مرسومة غير مرتجلة : والدليل على ذلك ما صدر من المؤلفات فى تلك الفترة الأولى من حركته . وأولها مؤلفات الزعيم عثمان نفسه . فقد ألف أكثر من عشرين كتابا وبحثا ، فى الفقه والسياسة والجهاد ، وكان شقيقه الوزير عبدالله مؤرخاً وشاعرا وأديباً ، عرف من مؤلفاته نحو ١٨ كتابا بعضها لايزال مخطوطا ، وبعضها ترجم ونشر فى اللغات الأجنبية . كذلك . كان محمدو بللو أديبا ورعا ومؤلفا . وإلى جانب هؤلاء من رجال الطليعة الفكرية فى نيجيريا . قام علماء آخرون حملوا رسالة الفكر المقدسة نذكر منهم :

الوزير جنيد السوكوتى ، عبدالله بن محمد ، عبد القادر بن مصطفى بن ابنة عثمان الفودى ، عبد الرحمن بن الخطيب ، وغيرهم .

وقد أدرك علماء الغرب من "بريطانيين وفرنسيين منذ وطيء الاستعمار

الأوربي غرب أفريقيا ـ أهمية المخطوطات العربية التي ألفها هؤلاء العلماء فنقلوا كثيراً منها إلى مكتبات بلادهم ، ودأبوا على بحثها وترجمتها ونشرها بواسطة المعاهد العلمية ، ومع ذلك فلا تزال هناك إلى اليوم مخطوطات عربية كثيرة من مدن نيجيريا الشمالية لم تحقق بعد ونأمل أن يتكاتف المسلمون على نشر هذا التراث الهام لخدمة العلم والدين ، ولا شك أن الوقت قد حان للقيام بهذه المهمة الجليلة ، والله مع العاملين

الفصل التاسع

الطرق الصوفية فى غرب أفريقيا

يرتبط معظم (غالبية) المسلمين السودانيين فى غرب أفريقيا برجال الدين بوساطة إحدى الطريقتين القادرية أو التيجانية . ولقد كان إنتشار هاتين الطريقتين ، ولا سيما الطريقة التيجانية ، عظيما جداً فى أثناء القرن ١٩ ولا يمكن تفهم انتشار الدعوة الإسلامية على حقيقتها تماماً ، وكذلك المنافسات الداخلية ضمن المجموعات الإسلامية ، دون النظر إلى ارتباط الزعماء المسلمين بإحدى الطرق الدينية ، لأن النفوذ السياسى لأحدهم كان يرتبط إلى حد كبير بمدى الزعامة الدينية التى يتمتعون بها .

كان ابن مسرة هو الذى أدخل الصوفيه إلى الأندلس فى القرن العاشر الميلادى ، وانتقلت منها إلى شمال المغرب عن طريق صوفية الأندلس ، وقد قامت الصوفية بدور هام عند المرابطين وازدهرت على أيام حكم الموحدين ، وقد اشتهر فى زمانهم طائفة من علماء الصوفية ، ومن أشهرهم أبو مدين شعيب (ت ١٢٢٧ - ٩٨) وانتقلت منه بوساطة تلميذه عبد السلام ابن مشيش (ت ١٢٢٧ - ٢٨) تعاليم الشاذلى (ت ١٢٥٨) ومنذ ذلك الحين انتشرت تعاليم الصوفية فى شمال أفريقية .

ويلاحظ أنه فى أثناء القرن الثالث عشر ، زاد عدد علماء الصوفية بشكل واضح ، وقد أقام هؤلاء زوايا كبيرة بعيدة عن المدن ، حيث كان يعيش شيخ الطريقه مع عائلته وخدمه وتلاميذه . وسرعان ما انتشر تعاليم هؤلاء إلى المدن المجاورة ، كما تناقلها البربر الذين أصبحوا مسلمين صادقين . وفى القرن الرابع عشر كثيراً ما كان يتردد الناس على مؤسس الزواية ليحظوا ببركته ، فإذا توفى ودفن بزاويته ، فسرعان ما يصبح هذا الضريح مزاراً مباركا يؤمه

الناس أفواجا ، وأصبح مع مرور الزمن مكانا مبجلا عندهم وملجأ للشفاعة ، وفى القرن الخامس عشر وبفضل بعض الرجال الصالحين من أمثال ابن عبدالله محمد الجزولى المتصوف (توفى حوالى ١٤٦٨) ، وكان بعد عودته من الحج ، قد انصرف إلى العبادة سنين طويلة ، وأنشأ طريقته الجزولية المنبثقة من الشاذلية[١] فتبعه أناس كثيرون فى المغرب الأقصى ، وألف «دلائل الخيرات» وفى القرن المذكور انتقل نشاط الدعوة الصوفية والطرق إلى البربر القاطنين فى موريتانيا وفى منطقة الساحل الصحراوى ، واجتذبت الطريقة القادرية - الشيخ عمر وهو يؤدى فريضة الحج ، ولما كان من رؤساء قبيلة كونتا الغربية ، فقد كان لنفوذه القوى أن انتشرت القادرية فى السودان الغربى ، وبخاصة بين الزنوج المسلمين الرحل والمقيمين فى المدن ، وقد أقبلوا عليها بعد أن اتخذت أشكالا تطابق غاياتهم الدينية ، وقد وجدت الطرق الصوفية أرضاً صالحة بين قبائل السوننكة والديولا والهوسا . ولا سيما عن يشتغلون بالتجارة .

يقول بعض الباحثين إنه لم تكن الطرق الدينية وحدها قبل التاسع عشر العامل الأوحد فى نشر الإسلام بغربى أفريقيا ، ولكن سرعان ما كان الالتحاق بإحدى الطريقتين : القادرية أو التيجانية مراد فالاعتناق الإسلام ، وأصبح كل مسلم يتبع واحدة من الطريقتين .

القادرية فى غرب افريقيا[٢]

دخلت القادرية أفريقيا الغربية فى القرن الخامس عشر بواسطة المهاجرين الذين قدموا من توات (واحة فى النصف الغربى من الصحراء الكبرى) ،

---

(١) تعتبر الطريقة الدرقاوية فرعاً من الشاذلية وصاحبها مولاى الدرقاوى ١٧٢٧ - ١٨٢٣ .

(٢) نشأت القادرية فى العراق فى القرن ١١ ، أسسها سيدى عبدالقادر الجيلانى =

فاتخذوا من ولاته أول مركز لطريقتهم، ولكن أحفادهم طردوا من هذه المدينة فيما بعد ، فلجأوا إلى تمبكتوا وأقاموا فى جبهة ثانية شرق ولاته .

وفى مستهل القرن ١٩ ، تلقى النهضة الروحية التى أثرت فى العالم الإسلامى تأثيراً عميقاً ، تدفع بالقادرية إلى تطور ونشاط جديدين ولم يمض زمن طويل حتى برز فقهاء متفقهون وجماعات صغيرة من المريدين قد انتشروا فى أرجاء السودان الغربى من السنغال إلى مصب النيجر ، ونهضت المراكز الرئيسية تنظيم دعوة القادرية فى كنتكا وتيمبو بفوتا جالون وموسرودو (ببلاد الماندنجو) ، وكانت هذه المدن تؤلف مراكز النفوذ الإسلامى وسط شعب وثنى رحب بالقادرية باعتبار رجالها فقهاء ، وكتاتيب تمائم ومعلمين ، وتسلطت القادرية على من كان يتصل بها شيئاً فشيئاً ، وسرعان ما تطور الدخول فى الإسلام من حالات فردية إلى حالات جماعية صغيرة من هؤلاء الذين أسلموا ، كان يرسل بعضهم إلى مراكز الطائفة لإتمام دراستهم .

أو كانوا يبعثوا إلى معاهد القيروان أو طرابلس أو فاس أو الأزهر ؛ وربما قضوا فى تلك البلاد عدة سنوات ، حتى يتقنوا دراستهم الدينية ، ثم يعودوا إلى أوطانهم لنشر عقيدتهم ، وكان نشاط القادرية فى الدعوة ذا طابع إسلامى ، يعتمد على الإرشاد وعلى أن يكون الواحد منهم قدوة لغيره وبهذه الخطة برهن دعاة القادريه على أنهم أوفياء لمبادىء مؤسس الجماعه ، ولتقاليدها ولمبادىء منشئها الذى أوصى تلاميذه بهذا السلوك السمح(١) .

= ويتبع اتباعها مذهب الإمام مالك ، ويشتهر من اتباع هذه الطريقة فى أفريقيا الزنجية شعبة القادرية كونته التى يتبعها فى جنوب المغرب مشايخ سعدبو (توفى ح ١٩١٧) .

(١) الدعوة إلى الإسلام : ص ١٦٥ - ١١٦ .

المغيلى :

يتفرع من القادرية شعبة البكائية ، ومؤسسها سيدى أحمدى البكاى الذى عاش فى نهاية القرن الخامس عشر وقد عمل على نشر دعوته فى الجزء الغربى من الصحراء الكبرى بينما كان يعمل التلمسانى محمد بن عبد الكريم المغيلى فى الجزء الأوسط من الصحراء وفى بلاد الهوسا. وقد ازدهرت البكائية مدة طويلة وعلى الأقل إلى عام ١٨٥٠ حينما سادت عليها التجانية ومنها شعبة أخرى للقادرية عرفت باسم « الفضيلة »

وفى القرن ١٨ ظهر ألفا إبراهيم الذى عمل على نشر الدعوة فى منطقة فوتا جالون على طريقة البكائية ، واتبعه نشاطه فيما بعد إلى غينيا والسنغال ولم يمض قرن من الزمان حتى استعادت القادرية نشاطها القوى بفضل الشيخ السيد الكبير التارازى ، وكان واحداً من تلاميذ المرابط كونت مختار الكبير الذى كان قد لعب دوراً كبيراً فى تهدئة الأحوال بين القبائل وقد عمل أتباع الشيخ سيد التارازى على نشر طريقتهم فى غمبيا وغينيا البرتغالية وليبريا وفى غانة أيضا (ساحل الذهب) ثم تسلم لواء القادرية فيما بعد الشيخ الزعيم المصلح عثمان دان فوديو فى منطقة النيجر الوسطى ، وفى نيجيريا والكمرون . ثم تولى شئون القادرية الشيخ سيدى بابا حتى عام ١٩٢٤ ، وكان عالما وأديبا واسع الفكر ، عمل على القضاء على كثير من البدع والتقاليد التى تفشت بين المسلمين .

الفضلية :

مع أن الفضلية فرع من الطريقة القادرية ، إلا أنها تقاوم شعبة كونتا البكائية لأسباب تقوم على العصب والعرق ، وتنسب إلى مؤسسها الشيخ محمد فضل (١٧٨٠ - ١٨٦٩) الذى كان زعيما لأهل طالب مختارة وهم من الصناهجة الذين يعيشون فى منطقة الحوض بالصحراء وهم أصلا من البربر ، وسرعان ما التفوا حول زعيمهم للتغلب على منافسيهم أهل زناته ، وتختلف الفضلية عن البكائية فى طريقة الذكر .

المريدية :

تتفرع من شعبة القادرية كونتا ، طريقة المريدية التى تزدهر فى السنغال وقد أسس الطريقة رجل تقى يدعى « أمادو بامبا » (احمدو) من قبيلة الوولوف وأصله من التوكولور ، ورغم أن أمادوا (١) لم ينفصل تماماً عن طريقة القادرية فقد اضطهدته الإدارة الفرنسية ونفته من البلاد مراراً لاشتغاله بالسياسة ، غير أنه منذ عام ١٩١٢ قصر نشاطه على الشئون الدينية ، وعند وفاته (١٩٢٧) وكان عدد أنصاره قد بلغ حوالى ٤٠٠٫٠٠٠ شخص ( ) ولا يزال قبره يزار إلى اليوم فى مدينة طوبة ، ولا يزال أفراد اسرته على رأس هذه الطريقة السمحة .

واليوم (عام ١٩٧٠) يقدر عدد المريدين فى السنغال ٧٠٠٫٠٠٠ وشعار الطريقة المريدية اتخاذ الزراعة عملا أساسياً واعتبارها أشرف الأعمال وقد أسست نفسها على أساس جماعى تعاونى ، ولكل فرد منهم نصيب معين من العمل ، يقوم به تحت اشراف شيخ الطريقة من المرابطين (الزعماء الدينيين) . كان على رأس أتباعه الشيخ إبرافال (٣)

٢ ـ الطريقة التجانية

نشأت هذه الطريقة فى شمال أفريقيا فى القرن ١٨ ، أسسها سيدى أحمد التيجانى المدفون بمدينة فاس وتتميز هذه الطريقة بتزمتها الشديد ومناهضتها للطرق الصوفية الأخرى . وانتشرت هذه الطريقة وهى طريقة الحاج عمر انتشاراً واسعاً فى أفريقيا السوداء . وتفرعت عنها شعبة حما الله .

---

(١) أى أحمد .

(٢) لا يقل اليوم عدد أتباع المريدية عن نصف مليون شخص :

(٣) D. S.uisc O'briev . The Mòu.edies of Senegal . the socio - economic structure of au Ialamic Ouder. P.h. D. Theeis London, 1969 (to pe Pullisket by Oxford u.p.)

نشأت هذه الشعبة في مدينة « نيورو » وهي من بلاد السهل . وتقع على بعد ٢٥٠ كم إلى الشمال الغربي من باماكو عاصمة مالى ، أسسها الشيخ « حما الله » وأصله من مسلمي البربر ، وكان على جانب عظيم من الذكاء ، بدأ دعوته بنفسه ، فلزم التعبد والتنسك ، والتف حوله جماعة من غلاة الأنصار ، ظل عددها يتزايد يوماً بعد يوم . وكان تأسيس هذه الطريقة إيذاناً بنشوب النزاع والشغب بين أتباع الطرق المختلفة ، إذ باغت الحمالون سكان البلاد المجاورة لهم عام ١٩٤٠ وأمعنوا فيهم تقتيلا ، بل أحرقوا المصاحف فألقت الإدارة الفرنسية القبض على الشيخ ونفته إلى فرنسا ، وتوفى في المنفى عام ١٩٤٢ ولم يخلفه أحد على المشيخة ، ولكن طريقته لم تتوقف عن الانتشار رغم ما طرأ عليها من التحريف .

كانت أولى الحركات شبه الحربية التي قام بها أفراد التيجانية في نشر الدعوة تلك التي تعزى إلى الحاج عمر الذي كتان قد التحق في هذه الجماعة على يد أحد زعمائها الذي تعرف عليه في مكة ، ولد عمر سنه ١٧٩٧ ، وكان ابناً لأحد المرابطين في السنغاو الأدنى وتثقف ثقافه « دينية متينة » ، واشتهر بعلمه وورعه حين خرج إلى الحج ١٨٢٧ ، ثم عاد إلى وطنه ١٨٣٣ ، ومن ثم نشط في نشر تعاليم التيجانية وهاجم أبناء دينه لجهلهم مهاجمة عنيفة ، وخاصة شيوخ القادرية . وقد عبر الحاج عمر السودان الأوسط فظفر بكثير من الأتباع .

وما وافت سنة ١٨٤١ حتى بلغ جبال فوتا جالون « حيث سلح أتباعه وبدأ سلسلة من المعارك في نشر تعاليم الدعوة . وفي إحدى هذه المعارك لقى حتفه (١٨٦٥) . ولم ينجح ابنه « أحمدو » (أمادو) شيخو في ضم مختلف الولايات في مملكة أبيه إلا سنوات قلائل ، ثم صدعتها المنازعات الداخلية وتدوم الفرنسيين ومن ثم انتقلت أراضيها إلى حكم فرنسا .

وأهم كتاب يجمع بين مذاهب أتباع التيجانية ورياضاتهم هو « جواهر المعاني وبلوغ الأماني المعروف كذلك بالكناش (القاهرة عام ١٣٤٥ هـ) ،

وهناك أيضاً ، كشف الحجاب على من تلقى مع التجانى من الأصحاب ، صنفه أبو العباس أحمد العياش (فاس ١٢٢٥ هـ ١٣٣٢) ، ويسمى أصحاب هذه الطريقة بالأحباب وقد حرم عليهم الانخراط فى طريقة أخرى .

٣ ـ السنوسية

صاحب الدعوة السنوسية السيد محمد بن على السنوسى الخطابى الحسنى الإدريسى وهو من سلالة ملوك الأدارسة الذين أسسوا الدولة الإدريسية ، عملوا على نشر الإسلام وتوطيد أركانه فى الغرب . وقد ولد صاحب الدعوة ببلدة مستغانم بالجزائر فى ١٢ ربيع الأول ١٢٠٢ (٢٢ ديسمبر ١٧٨٧) على ضفتى وادى شلف وميناً من ضواحيها فى محلة يقال لها (الواسطة) [(١)] وبعد عامين تقريباً من مولده توفى والده السيد على فتولت السيدة فاطمة تربية الإبن وتنشئته . وقد شغف بتحصيل العلم ، فقرأ على السيد محمد السنوسى القرآن الكريم وأتقنه وأخذ عنه العربية والفقه والحديث والتصوف ، كما درس على أيدى المعروفين من العلماء فى بلدة مستغانم .

كان السيد فى حداثته يميل إلى الانزواء والانفراد ويمضى وقته فى التفكير فيما يرى حوله من أحوال الإسلام ، وكان شديد الشعور بضرورة العمل من أجل إحياء الملة الإسلامية وتوحيد الصفوف فى العالم الاسلامى وللنهوض بالدين الحنيف نهضة قوية . لم يشعر بهذا إلا بعد أن نظر إلى حقيقة حال العالم الإسلامى وعرف جيداً أن هذا العالم مريض ، بل وفى حال التدهور المخيف فطن الى أسباب هذا التدهور وفهمه وإدراكه . وهذا لم يكن فى نظره إلا نتيجة خمول العلماء والشيوخ وانصرافهم إلى الراحة والدعة وابتعادهم عن اجهاد الجسم والعقل فى نشر كلمة الله العلى العظيم وإحياء نور الإسلام .

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ، ص ١١ — ١٤

لم يكتف العالم الجليل بما حصله من العلم فى بلده بل قصد إلى فاس محط رجال العلماء ومكث بها سبع سنين تقريباً (١٨٢٢ ١٨٢٩)فأخذ العلم بالرواية عن أفاضل علمائها من أمثال الشيخ حمودة بن الحاج وسيدى حمدون ابن عبد الرحمن وسيد الطيب الكيرانى وغيرهم ، ولم يلبث طويلا حتى اجتاز مرحلة طيبة فى العلوم التى درسها ، فحصل على المشيخة الكبرى وعين مدرساً بالجامع الكبير بمدينة فاس . وفيها نال شهرة علمية عظيمة ولكن دعوته إلى العدل والخير وجمع كلمة المسلمين وتطهير النفوس لم تثمر ثمرتها ، وتنبهت حكومة السلطان مولاى سليمان إلى دعوته وتلمست الخطر من جانبها وخشيت أن تتحول إلى دعوة سياسية تعصف بالحكم والسلطان .

وعلى ذلك شددت الحكومة فى مراقبة السيد فوجد أن لا فائدة من بقائه بفاس وقرر الارتحال عنها فى أواخر عام ١٨٢٩ ، ولكن لم يعد إلى مستغانم بلده وصار يتنقل من مكان لآخر حتى بلغ عين مهدى ، فدرس بها الطريقة التجانية (وكان فى أثناء إقامته بفاس قد اهتم بدراسة الطرائق القادرية والشاذلية والدرقاوية والناصرية والحبيبة والجزولية وغيرها) ثم قصد لاغوات لأهمية موقعها بجنوب الجزائر بجوار خطة توات التى كانت تعتبر أحدث مفاتيح الصحراء فمكث بها بعض الوقت يلقى دروسا فى الفقه والشريعة ، ثم ارتحل منها إلى مسعد ثم إلى جلفه ومنها إلى أبو سعدة ، فأقام بها بضعة أشهر ، حدث فى أثنائها مجىء الحملة الفرنسية إلى الجزائر ثم سقوط مدينة الجزائر فى أيدى المعتدين ، وفكر فى العودة إلى وطنه لكنه رأى من الخير أن يستمر فى سيره صوب الشرق .

غادر بوسعده ومر ببلدة تمحين ثم زار قابس وطرابلس الغرب وبنغازى وفى جميعها كان لا يشتغل إلا بالوعظ والإرشاد لمصلحة الإسلام .

وقرر أن يولى وجهه شطر مصر وكان من أجل علمائها الشيخ حسن العطار والشيخ الأمير والشيخ القويسى وغيرهم ، فحضر السيد السنوسى مع

هؤلاء العلماء واجتمع بهم ، ولم يلبث أن أصبح موضع خوف ووجل من جانب هؤلاء العلماء الذين كانت تربطهم بالسلطات الحاكمة روابط وثيقة ، فلم تطب نفسه للإقامة بالأزهر ، ثم لم تلبث أن زادت متاعبه عندما وجد نفسه أن يبدأ هو بإلقاء الدروس بدلا من الاقتصار على تلقى العلوم وحضور الدروس على أمل أن يستطيع نشر دعوته وأن يبث تعاليمه . فأثار بعمله هذا معارضة شديدة من جانب شيوخ الأزهر ، ثم زادت معارضتهم له لدرجة أن انبرى أحدهم (الشيخ حشيش) مخطئاً السيد وطلب من المستمعين الابتعاد عنه ، كمبتدع فى الدين . ولذلك غادر السيد مصر قاصداً الحجاز ، وكان لتلك الزيارة أثر كبير فى قيام الدعوة السنوسية وظهور شأنها (١) وفضلا عن هذا فقد اجتهد فى دراسة المذاهب الإسلامية لكى يحقق مخاطبة جميع العالم الاسلامى ولكى يتسنى له إقناع هذا العالم باتخاذ مذهب واحد يعينه على الاتجاه نحو الاتحاد الاسلامى .

وفى مكة التقى عالمنا الجليل — بالعارف بالله السيد أحمد بن إدريس الفاسى الذى كان رئيساً للخضيرية منذ ثلاث وثلاثين سنة . فاجتمع به السيد ولازم دروسه وتوثقت العلاقة بينهما . وظل أمرهما على ذلك حتى ارتحل الشيخ إلى اليمن بسبب ما لقيه من عنف رجال الحكومة ومعارضة علماء مكة .

وتبع السيد محمد بن على السنوسى أستاذه إلى اليمن وأقام معه هناك حتى توفى السيد بن إدريس فى عام ١٨٣٥ ، ثم عاد ثانية إلى مكة وانتقل منها إلى برقة فى عام ١٨٤٠ وتبعه كثير من أهل طرابلس الغرب كانوا قد حضروا إلى السيد لينالوا البركة منه . وكان هؤلاء هم نواة نشر الدعوة السنوسية فى برقة وطرابلس وذلك بفضل جهودهم الصالحة وما أسهموا به فى بناء بيوت العبادة والزوايا العديدة :

---

(١) المرجع السابق ، س ٢٠

استقر به المقام فى برقة بزاوية الجغبوب حتى وافاه الموت فى سنة ١٢٧٦ هـ (١٨٥٨/٥٩) بعد أن وضع أنظمة السنوسى التى كتب لها الحياة والبقاء ثم بمتابعة الذيوع والانتشار من بعده .

كان السيد رحمه الله قد استطاع قبل وفاته أن يجعل من جغبوب مركز لنشر الاسلام بين الزنوج الوثنيين فى وادى وفى الأقاليم المجاورة لها .

فقد تغلغت السنوسية فى عهد السيد فى تلك الجهات ولا سيما واداى . التى قبل سلطانها محمد الشريف أن يدخل الطريقة السنوسية فى سلطنته وظل من أكبر أتباع السيد ومريديه والصادعين بأمره حتى وافته المنية .

هكذا كانت السنوسية عند وفاة السيد محمد بن على السنوسى قد توطدت أركانها نهائياً وانتشر نفوذها حتى قطعت شوطاً بعيداً فى سبيل قيام الدعوة والإرشاد[1] ورفع لواء الجهاد والإرشاد من بعده ابنه السيد محمد المهدى السنوسى (ولد عام ١٨٤٤) الذى كان انتقل إلى الحجاز حيث بقى مدة يتعلم على أيدى شيوخ السنوسية بزاوية أبو قبيس بمكة المكرمة ثم أرسله والده إلى زاوية جغبوب الجديدة فى عام ١٨٥٧ : وعندما توفى والده العظيم بعد عامين من قدومه إلى جغبوب كان السيد المهدى يبلغ الستة عشر عاماً ويقوم على إرشاده وتثقيفه مع أخيه الأصغر السيد محمد الشريف جماعة من خلفاء الإخوان السنوسيين وشيوخهم وسرعان ما صار السيد المهدى يحتل مكانة رفيعة فى قلوب الإخوان والأتباع ومريدى الطريقة . وعلى أيديه توطدت أركان الإمارة الجديدة ، وامتد نفوذ السنوسية فى الأقطار الليبية وفيما جاورها من البلدان ، ومما ساعد على ذلك طول مدة إمارته التى بلغت حوالى الأربعين عاماً ونيف منذ توليته حتى وفاته فى عام ١٩٠٢ .

وفى أيامه أنشأ زوايا عـــديدة امتدت فى طرابلس وبرقة إلى واحات

(١) محمد فؤاد شكرى المرجع نفسه ص ٤١

الوجنقات وتقع وراء دارفور إلى الشمال — عدا زوايا السودان ثم زاوية كانوا فى بلاد النيجر . وكان عدد الزوايا التى أنشئت فى حياة والده السنوسى الكبير اثنتين وعشرين زاوية ، وأما فى حياة السيد المهدى فقد بلغت حتى عام ١٨٨٤ نحو المائة منتشرة فى برقة وطرابلس وعلى طريق غدامس وفى فزان وفى واحات جالو وأوجلة والجغبوب وعلى طريق مصر وطريق واداى ثم فى واداى وفى بلاد العرب وفى مصر ومراكش وفى بلاد التوارق وفى أنساله وتوات وغير ذلك .

وقد عنى السيد المهدى بتعمير وغرس الأشجار بهذه الزوايا فضلا عن أنها كانت مراكز للتعليم ولنشر هداية الاسلام وبذر بذوره ولاسيا بين الوثنيين فى اواسط أفريقيا .

وقدكانت العلاقة طيبة جداً بين الخليفة العثمانى والسنوسى الكبير ونجله وقد اعترفت الدولة العثمانية عن طريق واليها بالزعامة والإمارة ومنح الباب العالى السنوسيين فرمانات سلطانية بأيديهم أعفتهم بها من الأموال الأميرية والأعشار الشرعية ولم يلبث السيد محمد بن على السنوسى الكبير أن نال من السلطان عبد الحميد فى عام ١٨٥٥ فرماناً جعله بمثابة الأمير المستقل(١) .

وكانت هناك نقطة تحول هامة فى تاريخ انتشار السنوسية ، وهى عند ما قرر السيد محمد المهدى الانتقال من الجغبوب إلى واحة الكفرة . وكان يعنى من ذلك مقاومة جهود المبشرين فى إفريقيا الغربية ، ثم نشر الهداية والعرفان عن طريق الدعوة إلى الإسلام بين قبائل التبو والتوارق والإبر وغيرهم من الوثنيين ، أضف إلى ذلك أن السيد المهدى كان يدرك أن توثيق عرى الصداقة مع سلطنة واداى وإنشاء علاقات ودية مع بقية الإمارات الإسلامية فى جهات بحيرة تشاد مثل برنو وكانم وغيرها خير وسيلة لانتشار الدين الإسلامى ومبادئه القويمة وتعاليم السنوسية ثم تجنب الأخطار التى كانت تهدد تلك البلاد

---

(١) راجع عن علاقة السنوسية بحكومة الباب العالى كتاب الدكتور محمد فؤاد شكرى السنوسية دين . دولة . ص ٧٥ _

وأهمها خطران . أولهما قيام سلطنة رابح المشهورة فى السودان الغربى، وثانيهما عزم الفرنسيين على التوغل فى القارة وبسط سلطانهم على الامارات الاسلامية فى إفريقيا الغربية(١) .

وأحداث رابح فى تلك البلاد سواء أكانت ضد الوطنيين أو الفرنسيين طويلة لانستطيع إيضاحها هنا . ولكن كان فى آثارها الخطيرة أن واداى التى ظلت طوال عهد السيد المهدى تقريباً من أشد الامارات الافريقية الاسلامية ولاء وإخلاصاً للسنوسية ، لم تلبث أن اعترفت فى نوفمبر ١٩٠٣ باحتلال الفرنسيين رسميا للباجيرمى وكانم وغيرهما من الأقطار التى كانت لسلطانهم ، ومع ذلك فقد استطاعت السنوسية أن تسترد شيئا من نفوذها القديم فى واداى . بل وتمكنت بعد ذلك من تحريض سلطانها « داود بن على » استئناف الجهاد ضد الفرنسيين . ولكن لم يكن مقدراً للسيد المهدى نفسه أن يشهد حوادث هذا الجهاد الأخيرة . فقد توفاه الله فجأة وهو فى « قرو » فى أول يوليو سنة ٩٠٣ ، ونقل جثمانه الطاهر إلى الكفرة .

وفى الوقت الذى توفى فيه السيد المهدى (١٩٠٢) كانت السنوسية قد بلغت الذروة فى الانتشار(١).

ولما كان السيد محمد إدريس أكبر أنجال الأمير الراحل صغير السن فقد أوصى السيد المهدى بزعامة السنوسية لابن أخيه السيد أحمد الشريف على أن يكون السيد أحمد فى الوقت نفسه وصياً على السيد محمد إدريس نجل السيد المهدى الأكبر والخليفة الشرعى .

وشاهدت أيامه الجهاد الكبير ضد الإيطاليين الذين انتهزوا فرصة انهماك تركيا فى الحرب البلقانية وشنوا إعتداءهم على ليبيا . واستطاعوا السيطرة على الشريط الساحلى بالرغم من جهود السنوسيين إلى جانب القوات التركية .

---

(١) المرجع السابق

(٢) نقولا زيادة . برقة ص ٦٢ .

وفى الحرب العالمية الأولى وقف السنوسيون إلى جانب تركيا وألمانيا وهاجموا فى شتاء عام ١٩١٤ — ١٩١٦ مصر واستولوا على السلوم، وقد هدد السنوسيون مصر عدة مرات أخرى خــــلال صيف ١٩١٦ ولكن طاقتهم العسكرية كانت قد تضاءلت كثيراً . وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى أخضع الجنرال جرزيانى طرابلس الغرب نهائياً ، وكان الأمير السنوسى قصد إلى أنقرة رجاء أن يستطيع هناك مواصلة النضال فى سبيل مبدأه وعقيدته ،ولكن الدولة التركية الجديدة انتهجت سبلا مغايرة. فاضطر إلى وقف نشاطه والإخلاد إلى السكينة .

ولما توفى السيد أحمد الشريف فى عام ١٩٣٣ فى الحجاز انتقلت الزعامة إلى الأمير السيد محمد إدريس (ولد ١٨٨٩/١٨٩٠) ، وكان لا يطيق العيش تحت كيف المعتدين على بلاده فالتجأ إلى مصر منذ عام ١٩٢٣ وظل يرعى أبناء وطنه الشجعان إلى أن انضم للحلفاء فى أغسطس ١٩٤٠ ليعمل على تحرير بلاده فى كانم ،كما أن هناك غيرهم فى برنو ووادای ودارفور .

الفصل العاشر

الحضاره الاسلاميه فى غرب افريقيا

انتهى عهد الفتوح الإسلامية فى شمال أفريقيا والأندلس ، واستقرت الدولة الإسلامية بعض الوقت ، ثم بدأت حضارتها تتطور وثقافتها تنتشر فى أجزاء كبيرة من شبه الجزيرة الإيبرية ومدن الساحل الأفريقى المطلة على البحر المتوسط ، كما ازدهر التبادل الاقتصادى بين أجزاء البلاد العربية وكان من الطبيعى أن تنتقل الأفكار والثقافة مع قوافل التجارة التى كانت تسلك الصحراء الكبرى من الشمال إلى الجنوب ، ومضت الأحوال متخذة مجراها الطبيعى حتى ظهر الزعيم الكبير يوسف بن تاشفين ، فرأى أن ينهض بعمل فريد ، وكان عبد الله بن بسن قد مهد له السبيل ، وأخذ على عاتقه دعوة الشعوب السودانية فيما وراء الصحراء إلى الدين الحنيف ،وكان ذلك الحدث الكبير حينما اتجه أنصاره فى عام ١٠٦١ م إلى غانه ، ومن ثم انتشر الاسلام بين عدة قبائل .

ثم أسست تمبكتو بعد أعوام قلائل ، وقدر لها أن تكون من أهم المراكز الإسلامية فى قلب القارة الأفريقية . وهكذا امتد سلطان البربر تدريجياً من ساحل المحيط الأطلسى شمالا إلى المنعطف الشرقى لنهر النيجر ، وقامت إمارات ودول إسلامية كبرى ، دون أهلها صفحات ناصعة فى تاريخ الحضارة الاسلامية . ثم امتد نفوذ تلك السلطات رويداً رويدا حتى اتصلت بالنشاط الاسلامى شرقى بحيرة تشاد ، واتصلت بمسلمى وادى النيل . وهكذا ضم إلى العالم الاسلامى ، الشعوب السوداء الذين سرعان ما تقبلوا النظم الاسلامية فى الادارة والقضاء ، ونشأت عدة مدن إسلامية قامت فيها دور العبادة والعلم ، واندمجت الشعوب السودانية فى غربى أفريقية فى عالم الحضارة الاسلامية ؛

وشاركوا مسلمى الأندلس والمغرب فى نظمهم السياسية والدينية والآداب والعلوم .

وقد ازدهرت تلك الحضارة بوساطة العلاقات التجارية المستمرة عبر الصحراء ، حينما تبادل الشمال مع الجنوب خيرات البلاد . كما توافد العلماء ورجال الدين للتدريس فى مساجد تنبكتو وجنى وجاغ ومالى ، ينشرون الاسلامية بلغتها العربية الأصلية ، ويبعثون الطلاب إلى معاهد الأزهر والقيروان وتلمسان .

العلماء والفقهاء

وكان من الطبيعى أن ينهض بينهم طائفة من العلماء والمؤرخين يدونون أحداث البلاد ويصفون المجتمع السودانى فى مؤلفات طيبة ، وصل بعضها الينا ، فضلا عما دونه الرحالة المغربيون فى كتبهم ، ونستطيع بعد دراسة ذلك التراث أن نقول بلا مبالغة ، أن تلك الدول السودانية تمتعت بحضارة مجيدة لا تقل صورتها عن الحضارة الأوربية التى عاصرتها ، وإذا كنا قد جهلنا أحوال تلك الشعوب ؛ فرد ذلك إلى الفرقة الطويلة التى سادت العلاقات بين الشعوب الاسلامية فى القرون الأخيرة . أما من ناحية النظرة الأوربية ، فإن أوروبا المسيحية فى نضالها اليائس ضد الاسلام والمسلمين ، كانت فى نفس الوقت لا « تتبادل » الآداب العربية على عكس مافعلته بعد حين .

وهكذا جهل الأوربيون ولو إلى حين أحوال الأمم الافريقية فلم يعرف مثلا أن قصر ملك غانا فى ١١٥٣ م كان قد أوثق بنيانه ، وأحكم إتقانه ، وزينت مساكنه بضروب من المنقوشات والأدهان وشمسيات الزجاج ، وأن الافريقيين المسلمين استخدموا المدافع فى حصار المدن قبل أن تعرفها أوروبا ، فقد جاء فى تاريخ ابن خلدون ، أنه لما فتح السلطان أبو سيف بلاد المغرب وجه عزمه إلى الاستيلاء على سجلماسه سنة ١٢٧٣م فنهض اليها ونازلها ،

وقد حشد إليها أهل المغرب أجمع من زناتة والعرب والبربر ، ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعراضات وهدام النفط القاذف بحصى الحديد إلى أن سقطت .

وكان فى البلاد علماء وفقهاء وأدباء ومؤرخون وصلت إلينا ثمار قرائحهم ، وهى لاتشبه أو تعادل مثيلاتها التى كتبها علماء أوربا المعاصرون بل إنها فى كثير من الأحوال تسمو عليها ، ولا غرو لأن ذلك التراث العربى الأفريقى كان وليد التراث العربى الأندلسى ، واتخذ طابعه واستمد منه سماته .

المؤرخ عبد الرحمن السعدى :

ويقابلنا بين مؤرخى السودان ، العلامة عبد الرحمن السعدى صاحب كتاب تاريخ السودان ، ونلاحظ أن هذا العلامة لم يدون الأحداث التى مرت بهذا البلد فحسب ، بل إنه كان يعلق عليها ويذكر أسبابها ويعللها ، ويصف سلاطين البلاد وحكامها على حقيقتهم ، وينقد نظام الحكم ويوضح آراءه ، وماينبغى أن يكون عليه الحال فى وطنه ويعتبر كتابه المذكور من المراجع الهامة فى تاريخ دولة سنغاى وعلاقة المغرب بها ، وقد وافته المنية (١٠٦٣ هـ - ١٦٥٣م)(١)

يوضح لنا هذا . أن تلك البلاد الأفريقية كانت لها حضارة مادية وأدبية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، كما مرت مالى بدورها قبل ذلك ، وحدث هذا قبل أن تطأها أقدام البرتغاليين فى القرن السابع عشر .

تنبكتو

شهد المؤرخ الفرنسى « ديبو » إن القرن السادس عشر كان أزهى العصور التى مرت بتنبكتو التى وصلت فى ذلك الحين إلى أوج المجد الأدبى والعلمى ،

---

(١) يذكر مرجع آخر أن وفاته كانت فى عام ١٩٥٦ .

وذلك قبل أن يدهمها الغزو المغربي ففي ذلك الحين اتصلت تنبكتو وهي حاضرة الثقافة العربية بالقاهرة، ورحل علماؤها إلى مصر للاتصال برجال الأزهر، ودعموا صلاتهم بإمام مصر جلال الدين السيوطي وقد تحدث السعدي عن العلماء المصريين الذين زاروا تنبكتو وقضوا مدة للتدريس بمعاهدها .

وكانت هذه الحاضرة سوقاً للكتب ، تنسخ فيها المخطوطات وتوزع في البلاد ، وروى السعدي أن فيها من يدعى محمد بن محمود بن أبي بكر ، اقتنى نفائس الكتب العزيزة ، وربما يأتي لبابه طالب يطلب كتباً فيعطيها له في غير معرفة ، ووصل بعض علماء السودان الغربي في علمهم إلى مستوى لا يقل عن مستوى المدارس الإسلامية الأخرى ، إن لم يكن يزيد عنها في بعض النواحي وذكر السعدي أن فقيها اسمه عبدالرحمن الشيمي جاء من الحجاز بصحبة موسى سلطان مالي حين عاد من الحج، فأقام بتنبكتو زمناً ، ولما رأى رجالها يتفوقون عليه غادرها إلى فاس (١) .

ومن علماء تنبكتو البارزين أحمد بابا (١٥٥٣ - ١٦٢٧) الذي مر ذكره كان ينتسب إلى أسرة جلها من العلماء ، وقد ولي معظم أفرادها القضاء ، وكان قد درس العلوم الإسلامية على أبيه وجده وكثير من أفراد أسرته ، وترك ما يربو على الأربعين مؤلفا يعرف منها « نيل الابتهاج بطريز الديباج» (فاس ٣١٧) و « كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج » « ومعراج الصعود » و « الدر النضير » و « خمائل الزهر » و « نشر العبير »، وعدد كبير من الرسائل في موضوعات مختلفة(٢) .

ولما غزا المغاربة تنبكتو رفض أحمد بابا الاعتراف باحتلالهم ، فقبض

---

(١) تاريخ السعدي . ص ٥١ ، ٦٢

(٢) دائرة المعارف الإسلاميه .

عليه وعلى أفراد أسرته، واقتيد إلى مراكش (١٥٩٤) وفقد فى هذا الحادث ستمائة ألف مجلد، كما سقط عن ظهر جمل إبان رحلته فكسرت ساقه، ثم أطلق سراحه بعد حوالى عامين، على أن يغادر مراكش: فانقطع للتعليم فى جامع الشرفاء، وكان يستمع لدروسه خلق كثير، كما كان يعهد إليه بالافتاء.

ولما ولى السلطنة مولاى زيدان أذن له عام ١٠١٤ هـ/ ١٦٠٦ م، بالعودة مع من بقى من أسرته إلى تنبكتو، فعاد إليها وكرس حياته لتعليم الفقه، وهكذا نرى أن الثقافة الاسلاميه استقرت فى تنبكتو التى أصبحت لها نفس المكانة التى للقيروان فى تونس، أو فاس فى المغرب، أو قرطبة فى الأندلس وقد ارتبط تاريخ الثقافة فى سودان المغرب بتاريخ هذه المدينة الجليلة منذ أن أنشئت، اجتمع فيهـــا العلماء من كل وطن. « المغاربة والأندلسيون والحجازيون والمصريون»، وكان يفد إليها الطلاب من سنغال ونيجر ومن إمارات الهوسا وبرنو وكانم، فيقيمون فيها زمناً ثم يرحلون أو يبقون وكان معهد سنكرى بتنبكتو قريب الشبه من الأزهر فى مكانته العلمية. فأمه العلماء والفقهاء، ونبغ منهم طائفة وصلوا إلى الامارة، وقد ذكر المؤرخ السعدى كثيرين، منهم أحمد بن عمر بن محمد أقيت الذى خلف أكثر من سبعمائة مجلد (١). وقد أشار أيضاً إلى بعض الكتب التى كانت تدرس فى ذلك المعهد، منها «الشفاء» للقاضى عياض، و«تحفة الأحكام» لابن عاصم، وكتاب «المعيار» للونشريشى(٢).

تلك هى الناحية الثقافية لتنبكتو فى أزهى أيامها على عهد سلاطين سنغاى العظام، من أمثال أسكيا الهادى محمد، وأسكيا داود الذى توفى عام ٩٣٦ هـ. ١٥٢٨ م، وانتقلت تنبكتو من بعده إلى حكم المغرب بعد أن غزاها القائد

---

(١) تاريخ السعدى ص ٣١، ٣٧، ٣٩.

(٢) تاريخ السعدى ٢٦، ٢١، ٢٨، ٤١، ٥٠.

محمود عام ١٥٩٠ وضمها إلى أملاك مراكش ، وظلت خاضعة للمغرب إلى عام ١٧٥٠ ، وفى ذلك العهد عمت المظالم تنبكتو ، وشن الطوارق غاراتهم عليها وامتلكوها عام ١٧٩٢ ، ثم استولى الفولة عليها عام ١٨٢٧ .

ولكن إلى متى ظلت تنبكتو بعيدة عن التبادل الثقافى أو الاقتصادى الأوربى ، أو إلى متى جهلها الأوربيون ؟

اتصل الأوربيون بتنبكتو فى القرن الخامس عشر ، فأخذت المدينة تتعامل مع الثغور الإيطالية ، وبخاصة فلورنسة ، بطريق تونس وطرابلس ، وكانت تخرج منها أربعة طرق كبيرة من طرق القوافل :

أحدها يقصد مصر ماراً بكانم وجاغ ، والثانى يقصد تونس ويمر بحجار والثالث يقصد مراكش ويمر بسجلماسة وتافنلاليت وتوات ، والرابع يقصد السودان ، ويمر بملى وقد وصف اثنان المدينة فى ذلك العصر (القرن ١٥ — ١٦م) أولهما فلورنتين بنديتو الذى زارها عام ١٤٧٠ ، وثانيهما الحسن بن الوازن (ليو الأفريقى) الذى قام برحلته الإفريقية فى أوائل القرن السادس عشر وزار تنبكتو وأعجب بها ، وقال عنها « إنها مدينة عامرة بالحوانيت ، وبها معبد (مسجد) من الحجر والكلس بناه مهندس بارع من أهل غرناطة ، وقصر رائع فيه الملك محلى بصور كثيرة وقضبان من الذهب يزن بعضها ١٣٠٠ رطل » .

وانقطعت الصلة بين تنبكتو وأوربا بعد القرن السادس عشر ، ومع ذلك فقد كانوا يقولون عنها إنها مدينة عزيزة المنال ، تكتنفها الأسرار ، وافرة الثروة لاتجارها فى الذهب وريش النعام والعاج والعبيد وقد خاب سعى الكثيرون فى جلاء سرها ، وقتل فى سبيل ذلك الميجور لينج ، ثم أفلح رينيه كاييه فى رفع الحجاب عنها عام ١٨٢٨ ، فاتضح له أنه كان واهما فى تقدير شأنها ; وفضل

عليها مدينه جنى كثيراً ، ثم زار الرحالة الألمانى بارث تنبكتو عام ١٨٥٣ ، وكتب عنها كثيراً بعد ما وضع يديه على كثير من المخطوطات العربية (١) .

اثار تنبكتو الإسلاميه

وبهذه المدينة العتيقة عدة مساجد أثرية ، أهمها . مسجد جرنجوربر ، وسنكورى ، وسيدى يحيى ، أضف إليها القصبة (القلعة) المغربيه وأسوار المدينة وبعض القصور والدور التاريخية .

مسجد جنجوربر :

أقدم وأكبر مساجد تنبكتو ، ولا يعرف على وجه التحقيق تاريخ البناء الأول للجامع ، بيد أن المعروف أنه كان هناك مسجداً أقيم على موقعه فى القرن ١٣ ، ولم يذكر واحد من المؤرخين أو الرحالة شيئاً دقيقاً عن تاريخ إنشاء ذلك المسجد ، ويحتمل أن يكون السلطان منسا موسى هو الذى أمر الساحلى المهندس ببنائه (توفى بتنبكتو عام ١٣٤٦) . ولما مر الرحالة الحسن الوزان (ليون الأفريقى بتنبكتو فى أخريات القرن ١٥ ذكر أنه شاهد مسجداً مشيداً بالحجر . وقد ذكر العالم محمود كعت مؤلف كتاب « تاريخ الفتاش » ذكر القاضى العقيب (١٥٠٧ — ١٥٨٣) أمر بهدم المسجد وإعادة بنائه ، وكان قد ولى منصب القضاء فى عام ١٥٦٥ .

وذكر عبد الرحمن السعدى مؤلف تاريخ السودان ، أن إعادة تشييد هذا البناء تمت سنة ١٥٧٠ كما أعيد بناء مئذنة المسجد ، ثم ذكر مؤلف تذكرة النسيان بعض الإصلاحات التى أجرت بالمسجد فى الأعوام ١٦٧٨ ، ١٧٠٩ ، ١٧٠٦ وعلى ذلك يمكن القو بأن المسجد القائم القائم لا يشتمل على أية أجزاء يمكن نسبتها إلى ما قبل عام ١٥٧١ ، ويعتقد الرحالتان كايبه وبارث أن أقدم أجزاء المسجد — هو الجزء الغربى ، ومع ذلك فإن بعض رجال الآثار لا يوافقونهما على هذا الرأى .

---

(١) lieut Prefontan, Histoir ds Tombueto de sa fondation a l'occupation francaise.

ويحتوى المسجد من الداخل على ٢٥ صفاً من العمد ، تمتد من شمال المسجد إلى جنوبه ، وعلى ثمانية صفوف ممتدة من الشرق إلى الغرب وأهم أجزاء المسجد مشيدة بالحجر : العقود والجانب الغربى والمحراب وبعض أجزاء التكسية الخارجية . والسقف شيد من الخشب المتين . والمسجد صحنان، أحدهما واسع والآخر صغير متصل بالمئذنة . وبأحد الصحنين عدة قبور ليس عليها نقوش ذات كتابات مؤرخة .

مسجد سنكورى :

أقل أهمية من المسجد السابق ذكره وأصغر منه مساحة، ولا يعلم تماماً متى شيد . وقد ذكر السعدى فى كتابه أن سيدة ثرية شيدته وأوقفت عليه بعض المال للحفاظ عليه ، ويحتمل أن يكون تشييده بعد عام ١٣٢٥ وقبل عام ١٤٦٣ ، وقد هدم الحرم الأصلى للمسجد وأعاد بناءه القاضى العقيب ، وقيل إنه كان يعادل مساحة الكعبة المكرمة ، وقد شيدت معظم أجزاء المسجد بالحجر ، ولما مر به الرحالة الفرنسى رينيه كاييه عام ١٨٢٨ ، كان المسجد فى حالة جيدة .

مسجد سيدى يحي :

شيد هذا المسجد محمد نادى حاكم تنبكتو فى حوالى ١٤٤٠ (؟) ، وقد ذكر السعدى أن بناءه تم فى أثناء حكم الطوارق للمدينة فيما بين ١٤٣٢ ، ١٤٦٨ ، وقد عين هذا الحاكم صديقه سيدى يحي إماماً للمسجد وكان قد عرف بورعه وتقواه ، وقد توفى سنة ١٤٦٢/٦٤ ، وقد جدد بناءه حرم المسجد عام ١٥٧٧/١٥٧٨ على يد القاضى العقيب ، ووصفه الرحالة كاييه حينما مر بتنبكتو .

ومن آثار تنبكتو ، قصبة تنبكتو التى شيدت فى عام ١٥٩١ وكان قد بناها القائد جودر المغربى ، ولا أثر لها اليوم . أما سور المدينة فقد هدم حوالى عام

١٨٢٩ حينما نهب الفولة تنبكتو ، ولم يبق منه سوى بعض الأكوام والأنقاض عند مرور الرحالة بارث بتنبكتو فى عام ١٨٦١ .

وهناك بعض الدور التاريخية التى عاش فيها بعض كبـــار الرحالين من الأوربيين : جوردون لينج الذى وصل إلى تنبكتو عام ١٨٢٥ وفيلهير (١٨٢٦) ، وربنيه كايبه (١٨٢٨) ؛ وبارث (١٨٥٤ - ١٨٥٤) .

جنى (جنة)

تعتبر جنى من أهم المراكز الإسلامية فى سودان المغرب ، وتقع على مسافة مائتى ميل إلى الجنوب الغربى من تنبكتو ؛ وعلى مرحلة من الضفة اليسرى لنهر بنى (paut) أحد روافد النيجر وتقوم على هضبة صخرية وسط سهل فسيح تغطيه المياه فى فصل الأمطار .

يقول بارث الرحالة الألمانى عنها أنها أنشئت عام (٣٤٥هـ - ٣٣ ١ - ١٠٣٤) [1] . وسرعان ما ازدهرت تجارة الملح فى تغارا والتبر فى بطه ، وقد اعتنق غالبية أهلها الإسلام فى حوالى عام ٦٠٠ هـ - ١٢٠٣/١٢٠٤ ، ثم آلت إلى مالى على أيام ملكها مارى جاطه وأصبحت أهم أسواق قبائل الفوله والولوف والسركوله وأهالى تكرور الغربى ، وعرفت بعمل القماش .

وكانت جنى أمداً طويلا على جانب من الأهمية الاقتصادية ، وقد قال عنها السعدى [2] : إنها سوق عظيمة من أسواق المسلمين ، يلتقى فيها تجار الملح من مناجم تغارا وتجار الذهب من مناجم بط ، وأنه بفضل هذه المدينة تتجمع

---

(١) Barth. Tracls. vol·4· p. 567.

جاء فى دائرة المعارف الإسلامية أن تأسيسها يرجع إلى القرن الثالث الهجرى .

(٢) ص ١ فى تاريخ السودان السعدى .

القوافل فى تنبكتو من جميع الجهات المجاورة ، وكانت سوقا كبيرة لتجارة الرقيق ، ومركزاً ثقافياً ينافس تنبكتو ، وازدهرت فيها الدراسات الدينية ، وكان من علمائها الفقيه « فودى » محمد سافو الونكرى الذى عاش فيها فى أواخر القرن التاسع الهجرى ، وولاه أسكيا الحاج محمد قضاء جنى بعد رجوعه من الحج ، والقاضى العباس كب الجنوى ، وكان فقيهاً عالماً جليلا سخياً ، وكان قبره داخل مسجد جنى ، والقاضى محمود ابن أبى بكر يغبغ والد العالمين الفقيه محمد يغبغ والفقيه أحمد يغبغ الخ .

وتقول بعض المراجع أن الزعيم « كنبر » (وربما كان ملكا) كان فى طليعة الزعماء الذين أسلموا فى جنى فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى ، وقد ذكر السعدى أنه عدم قصره وشيد مكانه مسجداً ظل باقياً حتى القرن التاسع عشر ولاتزال آثاره باقية إلى اليوم(١) .

ولقد احتفظت أسرة كنبر بالسلطان فى جنى حتى نهاية القرن الخامس عشر ، ثم غلبهم على أمرهم السنغاى ، واستولى سنى على المدينة حوالى ١٤٧٠ بعد أن حاصرها سبع سنوات ، وفرض على الأهالى الجزية ، وقد عاد حكم سنغاى على سكان جنى بالخير لأنهم استطاعوا أن يبلغوا بتجارتهم حتى تنبكتو وجاغ والبلاد التى تقع عند منعطف النيجر بفضل الأمن الذى عم البلاد .

كانو

ومن المدن التى امتدت إليها الثقافة الإسلامية فى إمارات الهوسا كانو وكتسينا ، وقد كان ذلك منذ القرن الخامس عشر ، رحل إليها بعض علماء تنبكتو فى عام ١٤٨٥ ، كما اجتذبت كتسينا عدداً منهم ، وقد أقام الإمام

---

(١) هنا رواية أخرى تقول إن الذى شيد هذا المسجد رجل عربى يدعى ملوم (المعلم) إدريس وأنه هو الذى درب أهل جنى على بناء منازلهم وزخرفتها على النمط الذى لا يزال مستعملا فى جنى والنواحى المجاورة لها .

المغيلى فيها زمناً طويلا يعلم الناس ويرشدهم ويقضى بينهم . وهذا ما يدل على أن السيوطى رحل إلى شمال نيجيريا وأقام فى كتسينا زمناً يهذب الناس وعاد إلى مصر سنة ٨٧٦ هـ ١٤٨١ (١) .

ولكن لماذا لم تستقر تلك الحضارة السودانية ، ولم تزدهر على مر الأيام كما حدث للحضارة الاسلامية فى شمال أفريقيا ؟

إن الجواب على هذا السؤال معقد لاتصاله بمشاكل كثيرة . لعل فى طبيعتها العوامل الجغرافية التى يتصل بعضها بطبيعة الأقاليم السودانية أولا ، فهى تمتد فى رقعة كبيرة من غربى القارة على المحيط الأطلنطى إلى شرقى بحيرة تشاد وتخوم وادى النيل ، ومن حافة الصحارى الكبرى إلى ما بعد خط الاستواء . ويتصل العامل الآخر بطبيعة الصحارى وأهلها ، وما كان لهم من أثر ضخم فى سكان السهول الجنوبية والمدن الشمالية فى حوض نهر النيجر .

كانت غارات الرحل من أهالى الصحراء وقطعانهم على السهول مصدر خطر هدد الأمن والاستقرار بصفة مستمرة وكان غزو الجماعات الرحل لمن يفلحون الأرض من أهم ما اتسم به من تاريخ سودان المغرب . وقد رجحت كفة أهل الصحارى دوماً — على أهل السودان بسبب السلب والنهب وأسواق النخاسة مما أدى إلى قلة الكلأ والمراعى ، ونتج عنه بطبيعة الظروف عدم استقرار الجموع الكبيرة العـــدد من الأهالى ، الذين يستطيعون مقاومة الغزاة وردهم إلى قلب الصحراء ، كما كان يحدث أحياناً ، ومن أجل ذلك لم تنجز أفريقيا السودانية حركة تاريخية كبرى ، ولم تزدهر بها حضارة متصلة الحلقات فى تطورها .

وسودان المغرب ، كما قلنا ، منطقة واسعة حبيسة بين عائقين عظيمين قد

---

(١) آدم عبد الله الألورى : الإسلام فى نيجيريا ص ١٠

لا تيسر هجرة عرقية على نطاق واسع (كما حدث مثلا فى أواسط آسيا) ، فالصحراء الكبرى تضغط عليها فى الشمال ، والغابات الاستوائية فى الجنوب ويكاد يكون خلواً من العوائق الطبيعية ، ونعلم أيضاً أن السمة الجغرافية التى تسوده هى مجرى نهر النيجر الكبير ، ذلك المجرى الذى لا يمكن اعتباره عائقاً فى حد ذاته ، بل على العكس فإنه يعتبر طريقاً طبيعياً للمواصلات البرية والنهرية ، كما أن مناخه عامل ذو أهمية تاريخية وتضاريسه الجغرافية ليست متنوعة .. وهكذا كان عدم توافر الموانع الطبيعية أو المناخية من أهم الأسباب التى يسرت للأهالى أن يرحلوا إلى حيث يشاءون بسهولة فى أطراف السودان ، إما لتبادل التجارة فى أمن وهدوء مع قطعانهم أو للغزو والسلب ، وقطع الطرق ، وثمة ظاهرة جغرافية أخرى ، ففى الأجزاء الغربية من القارة لم تتوافر المواطن الصغيرة التى جعلتها الطبيعة شبه مواطن معزولة أو منفردة ، كما كانت فينيقيا فى غربى آسيا ، ونيبال فى قلبها ، والحبشة فى شرقى آسيا ، مما يشجع على نمو الروح الاستقلالية والشعور القومى ، ورغم أى تسرب أجنبى إليها ، واحتضان حضارة بادئة لتنمو فى ظل ورعاية دويلة صغيرة . ويمكن القول إن هذه المزية لم يعرفها أهالى السودان الغربى .

ولم تكن الغابة تصلح من الناحية الطبيعية لرفاهية رجل السودان ، لأنها عائق لا يمكن اختراقه ، وربما كانت أقل وطأة من الصحراء التى كانت تخترقها سبل التجارة والثقافة بالرغم من المشاق والصعاب وعلى أية حال يمكن القول بأن الغابة كانت عائقاً أمام نور المعرفة والثقافة ضد النور والمعرفة ، بينما كانت الصحراء سبيلا إليها .

ولكن ينبغى ألا نبالغ فى تقدير دور الصحراء باعتبارها من عوامل نقل الثقافة ، فإن هذا النور لا أثر له فى مجتمع البداوة ، ولا مقام له مع حياة الرحل . ولا نعرف حضارة قامت فى الصحراء الكبرى قبل استخدام الجمل فى أثناء القرون الأولى من ميلاد المسيح ، فكيف تستقر حضارة ما بين أقوام

بدو رحل ، ينزعون خيامهم الصحراوية إذا ما اقتربت شهور الصيف قاصدين هضاب الأطلس فى الشمال أو مراعى السودان فى الجنوب ؟

صحيح أن بعض تلك الهجرات الموسمية . كان يستقبلها السودانيون بالترحاب ، فبوساطتها يفيدون ويستفيدون عن طريق تبادل المنتجات والسلع ، لكنها كانت كذلك لا تخلو من التخريب والنهب ، وفى كثير من الأحوال ، كان الرحل يفضلون الاقامة المستديمة بين خيرات السهول ونعيم المدن ، فيضطر أصحابها من السودانيين إلى الرحيل ، ومن ثم تتولى الأرض إلى الجدب والخراب بعد أن يهجروها فالحوها ، والزراعة كما هو معروف أساس التقدم المستمر فى أية حضارة ، ولكن فالح الأرض ينقصه الابتكار وسرعة التنقل والتبصير بالأمور والمقدرة السياسية وهذه صفة من صفات الرحل ، ولذلك لاحظنا أنه عندما اتحد أهالى السهول مع الفلاحين وتآلفوا سوياً استطاعوا تكوين حكومة ثابتة ذات نزعة توسعية بين سودانيي الغرب الأفريقى ملكة التنظيم السياسى فاستطاعوا فى بعض الأزمنة أن يشيدوا دولا منيعة السلطان ، كغانة ومالى وسنغاى .

وإذا كنا قد ذكرنا أن للرحل والرعاة مقدرة على إقامة الدول بفضل نظامهم وأخلاقهم الصحراوية ، فإننا نلاحظ ظاهرة أخرى وهى أن تلك الدول كانت دواماً قصيرة الأجل ، ويفيض التاريخ بالأمثلة على صحة ذلك كالرعاة (الهكسوس) فى مصر القديمة ، والفاندال فى أفريقيا ، والنورمان فى انجلترا ، والمغول فى أوروبا وآسيا ، والمرابطين فى المغرب والأندلس والمعاربة فى السودان بعد المرابطين فى القرن الحادى عشر .

إن الإصرار والمثابرة التى اتسم بهما شعب الماندنجو وزعماؤه تستحق أن تلفت النظر إليها بعد أن أتيح لهم السيادة والغلبة فى غرب أفريقيا ، حينما استولوا على غانا وأقاموا دولة مالى ، ثم عملوا على توسيع رقعتها ، وبنوا

إمبراطورية مترامية الأطراف تجاوز حدود الصحراء ، إلى شواطىء البحر المتوسط ، ثم ما كان لأسرة أسكيا فى نهضة دولة سنغاى ، التى ربما كان يكتب لها البقاء مدة أطول إذا لم تكن قد تعرضت للغزو المغربى .

اسباب انهيار الدول الإفريقية

وينبغى ألا نغفل عن عدة عوامل جغرافية أخرى عجلت بانهيار الدول الأفريقية السودانية ، الواحدة بعد الأخرى ، فقد كان اتساع أرجاء الدولة وعدم توفر العوائق الطبيعية ممهداً فى كثير من الأحوال لقيام الثورات المحلية والخروج على طاعة الحاكم مضافاً إلى هذا الاختلاف بين الشعوب والأجناس الخاضعة له وقد ظهر ذلك جلياً حينما كان التوسع الإقليمى سابقاً للنضج الإدارى أو السياسى للحكومة المركزية ، فكانت تعم الثورات وتنشب الفتن حينما يولى سلطان جديد ، فيعزل رجال سلفه ويولى آخرين مكانهم ، ويوجه الحملات العسكرية لإعادة الأمن إلى نصابه ، وكانت تلك الاستعدادات تستغرق وقتاً طويلا ، فلم تكن طبيعة البلاد تسمح بإقامة معاقل أو حصون تتحكم فى كل إدارة أو مملكة تابعة للسلطان يستطيع رجالها أن يسرعوا القضاء على الفتنه وهى فى مهدها .

وكانت صعوبة المواصلات والانتقال من أهم أسباب ضعف تلك الدول الأفريقية . فكلما طالت المسافة بين الحاكم والمحكوم ضعفت السلطة وهذا مافطن إليه الفاتحون منذ القدم ، ولعل الرومان كانوا أول من تنبهوا إلى تلك الحقيقة . فأكثروا من شق الطرق وتعبيدها بين ممتلكاتهم ، وأقاموا الحصون والمعسكرات فى الأماكن العسكرية . ولم يعرف السودانيون نظام البريد الذى كان معمولا به فى العصور الوسطى ، ولاسيما بين الدول الإسلامية ، ولا نعرف زعيما أفريقياً أدرك أهمية الطرق فى أنحاء بلاده أو عمل على تنظيم شبكة من مخافر البريد ، ولذلك عجزت الحكومة المركزية عن الإشراف الكبير على

شئون الدولة . وربما كانت الأمطار الغزيرة التي تهطل عدة أشهر في السنة عائقا لا يتغلب عليه تحت الظروف الافريقية فلم يعن أحد بإنشاء الطرق في تلك البلاد حتى إلى وقت قريب(١)

وإذا كانت للحدود الطبيعية من جبال وهضاب وصحارى ومسالك مائية فوائد شتى في حماية البلاد ووقايتها في تلك العصور ضد الغزو الأجنبي ، فإن عدم وجودها يسر الاتصال التجارى والتبادل الثقافى مما أفاد الدول الأفريقيـــة ، فنعمت بالرخاء الاقتصادى ، وانتقلت إليها حضارة المغرب ووادى النيل .

ولا يخفى أن البيع والشراء مما يصحبه دواماً تبادل الأفكار ونمو الثقافات وانتقال الحضارات ، ولولا طرق القوافل التى كانت تربط سودان المغرب ببلاد البحر المتوسط أو وادى النيل ، لما ازدهرت في وقت من الأوقات تلك الحضارة الإسلامية التى عرفتها مالى ، وسنغاى ، وبرنو منذ القرن الحادى عشر ، تلك الحضارة التى لم يعرف السودان مثلها من الحضارات السابقة — أفريقية أو رومانية أو بيزنطية .

تعلم أهل السودان عن طريق اتصالهم بتلك الحضارة الزاهرة أشياء كثيرة لم يعرفوها من قبل ، ففى الزراعة كانوا لا يزرعون سوى ما يحتاجون إليه من الطعام ، لكنهم تعلموا فيما بعد زراعة القطن والنيلة ، كما عرفوا أساليب البناء في المساكن وأسوار المدن والمساجد ، وأهم من ذلك تلقوا مبادىء التنظيم السياسى والاجتماعى والحكم ، واعتنق غالبيتهم الدين الإسلامى وأجاد علماؤهم اللغة العربية ، وأسهمت طائفة كبيرة منهم في الكتابة في شتى ألوان التأليف ، في الأدب والدين والعلم والتاريخ ، كما برزت منهم جماعة من المصلحين الدينيين . . الخ . الذين عرفوا كيف يقضون على التقاليد الوحشية والعادات

---

(١) كانت الأمطار نعمة للعاملين في الزراعة وهم الذين اعتمدوا على مائها .

والمعتقدات الشريرة التي تفشت بين الشعوب السودانية ، فحل مجتمع حضارى جديد مكان المجتمع البدائى القديم . ولم يقف فى سبيل نشر ذلك النور الحضارى سوى الغابة ، فظلت فى ظلامها موطننا للحيوان الكاسر والسحرة إلى وقت قريب ، أضف إلى هذا ما أصيبت به البلاد فى أعقاب الاستعمار الأوروبى . فذابت شخصيتها السياسية ، ومع ذلك لم يستطع المستعمرون أن يقتلعوا الروح القومى فيها . فنهضت من رقدتها ، لتعيد من جديد مكانتها الرفيعة ، وتسهم فى حضارة العالم المعاصر .

سكان القارة الإفريقية والمسلمون فيها
(١٩٧٣)

البلد	العاصمة	السكان	المسلمون	النسبة المئوية
جمهورية مصر العربية	القاهرة	٣٦ر٥٠٠ر٠٠٠	٢٢ر٥٠٠ر٠٠٠	٩٣ ٪
جمهورية السودان الديمقراطية	الخرطوم	١٦ر٦٠٠ر٠٠٠	١٤ر٠٠٠ر٠٠٠	٨٠ ٪
جمهورية العربية الليبية	طرابلس	٢ر٠٠٠ر٠٠٠	٢ر٠٠٠ر٠٠٠	١٠٠ ٪
الجمهورية التونسية	تونس	٥ر٤٠٠ر٠٠٠	٥ر٠٠٠ر٠٠٠	٩٤ ٪
الجمهورية الجزائرية	الجزائر	٤ر٠٠٠ر٠٠٠	١٣ر٢٠٠ر٠٠٠	٨٥ ٪
المملكة المغربية	الرباط	١٦ر٠٠٠ر٥٠٠	١٥ر٠٠٠ر٠٠٠	٩٥ ٪
جمهورية موريتانيا الإسلامية	نواكشوط	١ر٢٠٠ر٠٠٠	١ر١٠٠ر٠٠٠	٩٨ ٪
المغرب الإسلامية		٥٠ر٠٠٠	٤٥ر٠٠٠	٩٨ ٪
إثيوبيا	أديس أبابا	٢٥ر٠٠٠ر٠٠٠	١١و٠٠٠ر٠٠٠	٣٨ ٪
الصومال	مقديشيو	٣ر١٠٠ر٠٠٠	٣ر٠٠٠ر٠٠٠	٩٩ ٪
آفار (جيبوتى)		٨٥ر٠٠٠	٨٠ر٠٠٠	٩٢ ٪
كينيا	نيروبى	١١ر٨٠٠و٠٠٠	٢ر٠٠٠و٠٠٠	١٧ ٪
تنزانيا	دار السلام	١٣ر٩٠٠ر٠٠٠	٣ر٢٠٠ر٠٠٠	٢٤ ٪
أوغنده(١)	كمبالا	١٠ر٢٠٠ر٠٠٠	٨٠٠ر٠٠٠	٨ ٪
موزمبيق	لورنزو مركيز	٧ر٧٠٠ر٠٠٠	٧٥٠ر٠٠٠	١٠ ٪
ملاوى	زومبا	٤ر٨٠٠ر٠٠٠	٣٠٠ر٠٠٠	١٠ ٪
زامبيا	لوساكا	٤ر٦٠٠و٠٠٠	٢٠٠ر٠٠٠	٥ ٪
روديسيا	سلسبورى	٥ر٦٠٠ر٠٠٠	٥٠ر٠٠٠	٢ ٪
باسوتولاند	ماسيرو	٨٠٠ر٠٠٠		
سواريلاند	نجوانى	٤٢٠ر٠٠٠		

(١) ينبغى أن نقابل عد المسلمين فى أوغنده بتحفظ .

البلد	العاصمة	السكان	المسلمون	النسبة المئوية
رواندا	كيجالى	٣ر٧٠٠ر٠٠٠	٧٠٠ر٠٠٠	
بوروندى	بوسومبورا	٣ر٦٠٠ر٠٠٠	٩٠٠ر٠٠٠	
جمهورية جنوب أفريقيا	بريتوريا	٢٢ر٣٠٠ر٠٠٠	٢ر٥٠٠ر٠٠٠	
مالى	باماكو	٥ر٠٠٠ر٠٠٠	٤ر٨٠٠ر٠٠٠	٨٥ ٪
السنغال	دكار	٤ر٠٠٠ر٠٠٠	٣ر٠٠٠ر٠٠٠	٨٠ ٪
غامبيا	باثورست	٥٠٠ر٠٠٠	٢٥٠ر٠٠٠	٨٥ ٪
غينيا بيساو	بساو	٦٠٠ر٠٠٠	٥٢٠ر٠٠٠	٣٥ ٪
غينيا	كوناكرى	٤ر٢٠٠ر٠٠٠	٣ر٨٠٠ر٠٠٠	٨٥ ٪
« الإسبانية	مانا	٢٠٠ر٠٠٠	٥٠ر٠٠٠	٢٥ ٪
سيراليون	فريتاون	٢ر٧٠٠ر٠٠٠	١ر٧٠٠ر٠٠٠	٥٥ ٪
كمرون	يا أوندى	٦ر٠٠٠ر٠٠٠	٣ر٢٥٠ر٠٠٠	٦٠ ٪
ساحل العاج	أبيدجان	٤ر٥٠٠ر٠٠٠	١ر٠٠٠ر٠٠٠	٢٥ ٪
توجو	لومى	٢ر١٠٠ر٠٠٠	٩٥ر٠٠٠	٥ ٪
غانة	أكرا	٩ر٠٠٠ر٠٠٠	٢ر٧٥٠ر٠٠٠	٢٥ ٪
ليبيريا	مورفيا	١ر٢٠٠ر٠٠٠	٤٠٠ر٠٠٠	٢٠ ٪
داهومى	نورتونوفى	٢ر٨٠٠ر٠٠٠	١ر٣٥٠ر٠٠٠	٤٥ ٪
جابون	ليبرفيلى	٥٠٠ر٠٠٠	١٥ر٠٠٠	٢٠ ٪
النيجر	نيامى	٤ر٣٠٠ر٠٠٠	٣ر٣٠٠ر٠٠٠	٨٠ ٪
نيجيريا	لاجوس	٦٨ر٠٠٠ر٠٠٠	٤٢ر٠٠٠ر٠٠٠	٦٥ ٪
جمهورية أفريقيا الوسطى	بانجوى	١ر٦٠٠ر٠٥٠	١٢٥ر٠٠٠	١٠ ٪
تشاد	فورت لامى	٣ر٧٠٠ر٠٠٠	٣ر٠٠٠ر٠٠٠	٨٥ ٪
فولتا العليا	واجادوجو	٥ر٦٠٠ر٠٠٠	٣ر٢٠٠ر٠٠٠	٥٥ ٪
كونغوليو بولدفيل- زائيرى	كينشاسا	١٨ر٠٠٠ر٠٠٠	٢ر٠٠٠ر٠٠٠	٢٠ ٪

البلد	العاصمة	السكان	المسلمون	النسبة المئوية
كونغو برازافيل	برازافيل	٩٥٠٫٠٠٠	٣٥٠٫٠٠٠	٣٥٪
أفريقيا الجنوبية الغربية	وندهوك	٦٥٠٫٠٠٠	٢٢٠٫٠٠٠	٣٥٪
أنجولا	سنت بولدى لواند	٥٫٦٠٠٫٠٠٠		
جزيرة مدغشقر (مالاجاشى)	تناناريف	٧٫٠٠٠٫٠٠٠		
ج : موريتيوس	بورب لويس	٧٠٠٫٠٠٠		
ج . سيشيل		٥٠٫٠٠٠		
أرخبيل كومور		٢٨٥٫٠٠٠		
رينيوق		٤٣٥٫٠٠٠		
جزائر الرأس الأخضر		٢٣٥٫٠٠٠		

الفصل الحادى عشر

بناة حضارة الاسلام فى غرب افريقيا

عبدالله بن يس الجزولى

هو واحد ممن بنوا حضارة الاسلام فى غرب أفريقيا

فى عام ١٠٢٠ م واجه زعماء قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة فى الصحراء الكبرى صنهاجة البربرية مملكة غانا فى غرب أفريقيا وكان تارسينا شيخ قبيلة لمتونة أول زعيم صنهاجى ومسلم أدى فريضة الحج . ولما كان فى مكة تشبع تفكيره بأهمية الجهاد ضد الزنوج الوثنيين ودعوتهم للاسلام ، بيد انه استشهد وهو يقاتل سنة ١٠٢٣ م . ويمكن القول بأنه كان الرجل الأول الذى غرس بذرة الجهاد الاسلامى فى غرب السودان وجنوب موريتانيا ، أما الرجل الثانى فهو يحى ابن ابراهيم زوج ابنته . وكان يحي هذا شيخ قبيلة جدالة .

شاء القدر أن يظهر هذا الرجل فى جدالة ، فكان مستنيرا يقظا وصاحب وعى متنور . فضاق ذرعا بما تعثر فيه قومه من الجهالة وسوء الفهم لمبادىء الاسلام لأنه لم يكن لديهم الدعاة الأكفاء . أراد يحي أن يستنير ويستزيد من تحصيل العلم ، فعهد بشئون القبيلة إلى ابنه وأخذ يجوب فى المغرب طلبا للمعرفة فوقف على مبادىء الاسلام الحقة ، وعقد العزم على أن يذيعها بين جماعات الملثمين ، فأدى فريضة الحج مع بعض الصنهاجيين عام ١٠٣٥ م ولما عاد أدرك يحي بن ابراهيم أنه لا يستطيع العمل وحده لأن شئون قبيلته تستأثر جانبا مهما من وقت عمله . ولذلك استقر رأيه على أن يدعو أحد العلماء لتعليم قومه مبادىء الاسلام وتثقيفهم دينيا وانقاذهم من الاعتقادات الخاطئة . ولذلك قصد القيروان وهى حينذاك المركز الروحى فى شمال أفريقيا فقابل أحد علمائها الدينيين

المتضلعين وهو أبو عمران موسى بن عيسى بن أبي الحجاج شيخ فقهاء المالكية ، وبعد ما أن تلقى عنه ما أراد ذكر لأستاذه العلامة أنه يريد أن يذيع بين قومه تقاليد القيروان الدينية ، وطلب منه أن يختار له أحد فقهاء المالكية ليصحبه إلى قومه فى الصحراء ، ورأى أبو عمران أن يحيله على تلميذه ، فقيه السوس وجاج بن زللوى اللمتونى (نسبة إلى لمتونة) لاعتقاده بأنه يصلح للقيام بهذا الواجب وذلك لمعرفته بعادات الملثمين وأساليب حياتهم وفى الحال اختار له وجاج تلميذه الصنهاجى الفقيه عبدالله بن يس الجزولى العلامة المجرب القوى الإيمان ، فأقبل هذا على واجبه الذى أختير له وجعله هدف رسالته . وقد استطاع عبد الله لخبرته ومعرفته بلهجات البربر واخلاصه للدعوة أن يكسب الأنصار ويضم تحت لوائه جموعا حاشدة تدين له بالطاعة .

بدأ عبد الله بن يس يبث تعاليمه فى بادىء الأمر بين اللمتونيين ، ولما رأى بعض زعمائهم يضعون العراقيل فى سبيله ، تركهم وذهب مع يحيى بن ابراهيم إلى قبيلته جدالة حيث عظم تأثيره وذاعت دعوته ودانت له فى النهاية لمتونة ومسوفة . ولما توفى الزعيم يحيى بن ابراهيم عام ١٠٤٨ ندب عبد الله بن يس مكانه للرياسة الزعيم يحيى بن عمر بن تلاكاكين اللمتونى ليتولى شئون القتال . وكانت هذه أول مرحلة فى رياسة لمتونة الزمنية لطائفة المرابطين قبل أن يصبحوا دولة مجاهدة .

ولما كان عبدالله بن يس يعلم أن رجاله سوف يخوضون المعارك لنشر دعوتهم شيد رباطا يأوى اليه أصحابه ليتفرغوا للعبادة والجهاد ، ورأى عبد الله أن يستفيد من فكرة اقامة الرباط (الحصن الصغير للتعبد) لتخريج جماعة مدربة على القتال ومتأهبة للتضحية فى سبيل العقيدة . حتى إذا ما استوثق من ثبات مركزه بعد توحيد صفوف قبائل الملثمين بدأ بحث على القتال ويبدأ غزواته لاخضاع قبائل المغرب لسلطان المرابطين .

وفى قرابة عام ١٠٥٤ م كان رجال الرباط الذين عرفوا فيما بعد بالمرابطين قد استولوا على مركزين تجاريين هامين غربى الصحراء الكبرى هما سجلماسة

فى الشمال و أودغشت فى الجنوب التى كانت تعتبر المركز الأمامى لمملكة غانا القوية ، ثم فتحوا درعه وأغمات التى تقع اليوم على بعد أربعين كم إلى الجنوب الشرقى من مراكش ، وشاءت الأقدار أن يستشهد الزعيم يحيى بن عمر عام ١٠٥٦م فى معركة بتغريلة ، فعين مكانه أخاه أبا بكر بن عمر . ثم تتابعت معارك الجهاد فى أنحاء المغرب وتوفى الفقيه عبدالله بن يس فى احدى المعارك التى نشبت فى أراضى برغواطه فى سنة ١٠٥٩م فاستأثر الزعيم أبو بكر بن عمر بزعامة المرابطين الروحية والزمنية معا وتحققت بذلك الدولة المرابطة اللمتونية ثم آلت الزعامة إلى يوسف بن تاشفين ابن عم أبى بكر وذلك فى سنة ١٠٦ م .

هكذا قامت الدولة المرابطية على أساس من العقيدة الدينية وكان منشئها الروحى الفقية المتحمس عبدالله بن يس الجزولى واحتفظت الدولة بهذا الطابع الاسلامى معظم حياتها حتى آل الحكم الى أسرة الموحدين .

رحم الله ابن يس فقد كان من أفذاذ الرجال المجاهدين الصالحين

أبو عبدالله محمد بن عبد الكريم المغيلى

فقيه المغرب الأفريقى

صاحب المؤلفات الجليلة التى تمدنا بصورة لامعة عن التراث الفكرى فى السودان الغربى الأفريقى وذلك فى نهاية القرن الخامس عشر .

يذكر عنه أنه فى أثناء اقامته بواحة توات أوحى بحركة شعبية ضد اليهود بعد ما شيدوا معبدا لهم دون اذن وألزمهم الذل ، وقيل أنه أوصى بدفع سبعة مثاقيل ذهب عن كل رأس يهودى ونازعه فى ذلك الفقيه عبد الله العصفورنى قاضى توات . وأرسلوا فى ذلك إلى علماء فاس وتونس وتلمسان ، فكتب فى ذلك الحافظ التنسى بصواب رأى المغيلى ووافقه عليها الامام عبدالله محمد بن يوسف السنوسى وغيرهم من علماء الدين فأسرع المغيلى وأمر جماعته فى توات ، فلبسوا آلات الحرب وقصدوا معابد اليهود وأمرهم بقتل من عارضهم ، فهدموها ثم قال لأتباعه من قتل يهوديا فله على سبع مثاقيل .

انتقل فقيهنا عبد الكريم المغيلي إلى بلاد أهير في الصحراء ثم قصد تكدا واجتمع بصاحبها وأقر أهلها وانتفعوا به ثم دخل بلاد كنو وكتسينه في شمال نيجيريا اليوم والتقى بصاحب كنو (كانو) محمد رونفه بن يعقوب (١٤٦٣ — ١٤٩٩) واستفاد عليه بعد ما قرأ دروسا في الاسلام والشريعة ثم قصد قاع (جانفو) عاصمة سنغاى الاسلامية وكان على عرش السلطنة الحاج محمد أسكيا فلما تقابلا سأله السلطان في بعض قضايا الشريعه وجرى عليه طريقته من الأمر بالمعروف وألف له كتبا أجابه فيه على مسائل دينية كبيرة ولما بلغه نبأ مقتل ابنه على يد اليهود عاد توا إلى توات حيث لاقته المنية بعد ذلك بقليل عام ٩٠٩ هـ (١٥٠٤) وكان المغيلي مقداماً على الامور جسور، جرىء القلب، فصيح اللسان، محبا في السنة، جدليا.

وتذكر العلامة المستشرق الفرنسي مارتي في رسالته عن الاسلام في غرب السودان أن المغيلي هو الذي أدخل الطريقة القدرية في تلك المنطقة، ويحتمل أن يكون الأستاذ مارتي قد وقف على تلك الحقيقة في مخطوط المغيلي «فتح الشكور» فإذا ثبت صحة هذه الحقيقة الهامة، فقد تساعدنا على تفسير الأسباب التي من أجلها ظلت كتابات العلامة المغيلي وذكراه حية في غرب أفريقيا. في الوقت الذي لايذكر فيه شيء عن أعمال أسلافه في القرن السالف وما زالت آثار المغيلي باقية وقد اقتبس منها كثير من العلماء النيجريين لاسيما فيما كتبه المصلح الامام الشيخ عثمان دان فودى، الذى أفاد كثيرا من آراء الفقيه المصلح المغيلي في الحركة الجليلة التي نهض بها هذا المصلح الجليل في أخريات القرن الثامن عشر.

وقد ذكر العلامة الكبير أحمد بابا التمبكتي فقيه غرب أفريقيا في القرن السادس عشر، تأليف المغيلي التالية:

١ — البدر المنير في علم التفسير.
٢ - مصباح الأرواح في أصول الفلاح.
٣ تآليف في المنهيات (طبع في القاهرة).

٤ - مختصر « تلخيص المفتاح » للقزويني مع شرحه .

٥ - مفتاح النظر في علم الحديث .

٦ - شرح الجمل (رسالة في المنطق للخونجي) .

٧ - تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين .

٨ - المقدمة في العربية .

٩ - الفتح المبين .

وللفقيه كتب أخرى لم يذكرها له العلامة أحمد بابا سنذكرها فيما يلي ولعل من أهم مؤلفات المغيلي ما يلي : -

١ - التعريف فيما يجب على الملوك ، وقد حقق هذه المخطوطة السيد محمد زيان بن محمد المأمون وزير كتسنة وقد طبعت في بيروت عام ١٩٣١ وترجمها إلى الأنجليزية السيدت . ه بلدوين تحت عنوان : إلتزامات الأمير (بيروت - ١٩٣٣) .

ومما يلفت النظر أن أحمد بابا ذكر هذه المخطوطة في سفره القيم نيل الابتهاج ، صفحة ٣٣٠ .

وفي الرباط مخطوطة أخرى لهذا الكتاب رقمها ٥٢٩ وكما ذكرها بروكلمان في الملحق الثاني من مرجعه المعروف في صفحة ٣٦٣ .

٢ - مختصر بما يجوز للحكام في رد الناس عن الحرام وقد جاء ذكر هذا المؤلف في القسم الثاني من كتاب الشيخ عثمان دابد فودي المسمى « تنبيه الإخوان » وقد ترجمه العلامة بالمر ونشره في مجلة الجمعية الأفريقية [1] .

٣ - تأليف فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار .

---

(١) مجلد ١٤ عام ١٩١٤/١٥ ص ٥٣ - ٥٩ ويحتمل أن يكون كتبها المغيلي سنة ١٤٩١ .

٤ أحكام الذمة .

٥ - ورقات فى عمل اليوم والليلة .

٦ - البدر المنير فى علم التفسير .

٧ - المغنى النبيل فى « شرح مختصر الخليل » .

٨ - أكليل المغنى .

٩ - شرح بيوع الآجال « لابن الحاجب الفقيه المالكى القاهرى .

١٠ - مفتاح النظر فى علم الحديث .

١١ - المقدمة فى المنطق .

١٢ - منح الوهاب (قصيدة) ويرجح أنها وردت فى كتاب الابتهاج المذكور تحت عنوان منظومة المغيلى فى المنطق صفحة ٩٤ .

١٣ - الفتح المبين .

١٤ - عدة قصائد بعضها دينية على وزن البردة فى مدحه صلى الله عليه وسلم .

والمعروف أنه وقع للعلامة المغيلى مراسلة مع العلامة المصرى جلال الدين السيوطى فى علم المنطق وقد أجابه السيوطى .

وطبيعى أن يكون للعلامة المغيلى مدرسة أخذت بأفكاره ومنهجه ويعدنا أحمد بابا فى كتابه « النيل » بأسماء خلفاء المغيلى من الفقهاء ثم نقلها المؤرخ السودانى عبد الرحمن السعدى فى كتابه « تاريخ السودان » ومن هؤلاء :

١ - محمد بن أحمد بن أبى محمد التازختى الذى اشتهر فى بلاد الهوسا وتقلد فى تسكدا ثم رافق محمود بن عمر بن محمد حقيث أثناء الحج (١٥٠٩) وتوفى فى حدود عام ١٥٢٩ وهو فى الستين من عمره بعدما كتب عدة شروح لمختصر الخليل وتصانيف أخرى .

٢ — مخلوف بن على بن صالح فقيه كانو وكتسينة .

٣ — العاقب بن عبد الله الانسمى المسوفى (بن قبيلة شوفة) . وهو من زعماء .أجادس (فى النيجر اليوم) وله عدة تصانيف وقد حضر بعض دروس السيوطى أثناء إقامته بمصر فى طريقه إلى الحج وقد عاش حتى عام ١٥٤٣ .

٤ — الإمام أحمد بن فرتوه البرناوى وقد كتب فى تاريخ دولة برنو الإسلامية .

المصلح الإسلامي

الشيخ عثمان دان فوديو

ابن فضل الله

(١٧٥٤ - ١٨١٧)

مصلح وعالم ديني ومجاهد مسلم ، تزعم حركة إصلاحية كبرى في غرب أفريقيا في القرن ١٨ ، وأسس دولة إسلامية مقرها سوكوتو في شمال نيجيريا. وإليه يعود الفضل في نشر الإسلام ودعمه بين قبائل الهوسا (الحوصا) .

وعثمان دان فوديو من قبائل الفولة ولد في عام ١٧٥٤ في قرية طفل(١) وعنى بتربيته الدينية وتفقه على مذهب مالك، وبعد عودته من الحج، اتجه إلى إرشاد الناس إلى حقائق الإسلام وأصوله ورأى أن يكرس حياته للعلم والوعظ ، فساعدته شخصيته الفياضة بحب الخير على التفاف الكثيرين حوله . فعمل على نشر دعوته بحماسة دون أن يلتجىء إلى القوة ، ولما لاحظ ملك جوبر(٢) علو مكانة عثمان - سار على رأس أتباعه قاصدا طفل ليقضى عليه . فاضطر إلى الفرار ، وكان ذلك في يوم ٢١ فبراير سنة ١٨٠٤ ، ويعتبر هذا اليوم - يوما دينيا يطلق عليه في شمال نيجيريا يوم الهجرة . فر إلى جودو فالتف حوله الأنصار والمريدون . وقد أدرك الزعيم عثمان أنه قد أصبح قائد طليعة من المجاهدين المتحمسين ، فألف منهم جيشاً يستعين به على إصلاح أحوال المسلمين ونشر الإسلام بين الوثنيين : ولم تمض أشهر قلائل حتى تغلب على جيش ملك جوبر ، ومنذ ذلك الحين أطلق أتباع الشيخ عثمان عليه - لقب أمير المؤمنين أو سلطان المسلمين . وما زال هذا اللقب يطلق على سلطان سوكوتو .

حالف النصر باستمرار رجال عثمان في جهودهم المباركة ، فتضخم عددهم وانضم الآلاف من قبائل الفولة تحت لوائه وكذلك من قبائل الهوسا ممن تمردوا

---

(١) Deghel (٢) Gober

على ملوكهم الظالمين وأصبحت تحت إمرته قوات كبيرة ، فأخضع كاتسينا وكانو وزاريا وأدماوة ونوبية وباوتشى وغيرها من الأقاليم النيجيريه وسرعان ما تطورت الأحداث فاشتعلت بين عثمان والزعيم الدينى محمد الأمين الكانى فى برنو معارك شتى ، انتهت باستيلاء الشيخ عثمان على بعض أجزاء برنو .

وفى عام ١٨٠٩ شيدت مدينة سوكوتو واختارها الشيخ عثمان حاضرة لدولته الجديدة ويمكن القول بأن فى عام ١٨١٠ ، وصل جهاد عثمان إلى أوجه وأخضع معظم بلاد الهوسا واعتقد عثمان أنه قد أدى رسالته ، فقنع بما أحرزه من النجاح ووجه عنايته إلى تنظيم إدارة البلاد فى أنحاء إمبراطورية الفولة التى قامت على الكفاح وقسم بلاده إلى قسمين : قسم يشرف عليه شقيقه عبدالله وآخر يحكمه ابنه محمد بلو .

فما هى أسباب هذا النصر ؟

تعود أهم هذه الأسباب إلى ضعف روح المجتمع فى تلك الممالك التى شن فيها الشيخ دعوته آنذاك . كانت الحياة تسودها الفرقة وتنافر الصفوف . وكان الملوك يعتمدون على جيوشهم الخاصة ورجال البلاط فكانوا منعزلين عن عن شعوبهم . فانقسم الشعب إلى سادة واتباع . كان عماد السادة الظلم والارهاب ، ويخشون على سلطانهم من جيرانهم ومنافسيهم ، بينما أفراد الشعب . سواء أكانوا من الفلاحين أو أصحاب المهن فقد عانوا الضرائب الباهظة وطغيان رجال الحكومة فى جباية الأموال . كانت تتوفر بالمدن الثروة الوفيرة بيد أنها تذهب إلى جيوب حفنة من الحكام ، ومن ثم أصبح الأغنياء أكثر ثراء . وأصبح الفقراء أكثر فقرا . فلا غرو إذن ، أن نهض عثمان دان فوديو بثورته (١٧٥٤ — ١٨١٧) ضد ملوك « هاب » ، سرعان ما استجاب لها شعب الهوسا وانضم إلى قبائل الفولة بكل حماسة ليخلصوا من العذاب

أدرك عثمان بحكمته كيف يوجه حركته لإصلاح المجتمع عن طريق الدين وحدد أهدافه مع أعوانه المخلصين . فكانت تعليماته إليهم واضحة تهدف قبل كل شيء إلى الاصلاح الاجتماعي واتباع نظام الشورى والبعد عن العسف والجبروت وتبدو آراء الشيخ عثمان في إدارة الحكومة فيما كتبه من المؤلفات ، لاسيما في رسالة الفرق(١) .

كان الفساد والمغالاة في الترف والأنانية والظلم من معالم حكم ملوك «هاب» ولذلك كانت دعوة عثمان تهدف إلى إزالة كل هذا الفساد والخلاص من الأحوال السيئة لحياة أفضل وأشرف . ويقول المصلح الشيخ عثمان رضى الله عنه في كتاب الفرق وفيه بعكس آرائه ما يلى :

أقول بعون الله أن دعائم الحكومة خمسة :

١) أن القوة (السلطان) لا تمنح لمن يسعى إليها .

٢) الحاجة إلى الشورى .

٣) التخلى عن القسوة .

٤) العــــدل

٥) الأعمال الصالحة .

ويقول عن النظام الحكومى ما يلى :

ينبغى أن تقصر أعمال الحكومة على أربعة وزراء ، أولهم وزير مخلص للأمانة العامة عليه أن يوقظ الحاكم إذا نام ، وأن يجعله يبصر إذا عمى ، وأن يذكره إذا نسى . ياسوء حظ الحكومة والشعب إذ ابتليت بوزير غير أمين وأهم صفات هذا الوزير الرحمة والعطف نحو الناس .

---

(١) الفرق بين ولاية أهل الاسلام وأهل الكفر مخطوط عربى للمصلح عثمان دان فوديو موجود منه عدة نسخ . حققه م . هيسكت : أنظر : مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية مجلد ٢٣ ، عدد ٣ عام ١٩٦٠ ، ص ٥٥٨-٥٧٩

وثانى الوزراء : القاضى الذى يخشى الله ، وثالثهم رئيس الشرطة الذى يعطى لكل ذى حق حقه ويناصر الفقراء ضد جشع الأقوياء : والرابع : هو المسئول عن جباية الضرائب فى نطاق واجبه المرسوم فلا يعسف أحداً .

والواقع أن هذه أمور حث عليها الدين الاسلامى . ولكن أهملها الطغاة والألمانيون وكانت بلدان غرب أفريقيا فى حاجة إلى الزعيم الذى يذكرهم بشمائل الإسلام وبالحاجة إلى العودة إلى مبادئه السمحاء . وقد نجح الزعيم الشيخ عثمان فى دعوته نجاحاً لم يلقه أى زعيم آخر فى موطنه ، فوحد كلمة الشعوب المتنافرة وهذب الدين . ويمكن القول بأنه فى عام ١٨١٠ وصل جهاد عثمان إلى ذروته واعتقد أنه أدى رسالته ، فوجه عنايته إلى تنظيم دولته فى أنحاء أمبراطوريته الفولة .

برهن زعماء الفولة على كفاءتهم فى دعم حياة ديمقراطية والاطاحة بالملوك الذين أهملوا مطالب شعوبهم . فوحدوا دويلاتهم المتنافسة وأصبحت قوة لا يستهان بها . أصبحت للفولة دوله مهيبة تتمتع بسيادتها تدين بالولاء لحاكم واحد وعاشت حوالى المائة عام حتى قدم الاستعمار البريطانى وقضى على سيادتها السياسية ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً حيال سيادتهم الدينية فى سكوتو أوكانو .

قلنا أن الشيخ عثمان بعد ما أحرز من النجاح ، قسم الدولة التى أقامها إلى قسمين كبيرين : أحدهما فى الشرق وجعله تحت حكم ابنه محمد بلو ، وجعل القسم الغربى تحت حكم شقيقه عبد الله . وقنع هو بالزعامة الروحية متخذاً مدينة سكوتو مقراً للدعوة الكبرى وأخذ يجد فى التاليف الدينى والاجتماعى

توفى الشيخ عثمان فى عام ١٨١٧ وهو فى الثالثة والسبعين ودفن فى مقبرته بسكوتو وقد ترك عشرات من الكتب الدينية والأدبية وفى أصول الحكم ، ما زالت موضع احترام من مواطنيه النيجيريين ونذكر منها :

• أصول الولاية .

. إحياء السنة وإخماد للبدع
. بيان البدع الشيطانية :
. ترغيب العباد .
. التصوف :
. تمييز المسلمين .
. الجهـــاد .
. دالية المديح .
. سوق الصادمين .
. شفاء الغليل .
. علوم المعاملة .
. عمدة العلماء .
. عمدة البيان .
. العقل الأول .
. كف الطالبين .
. المهدى المنتظر .
. المسائل المهمة تم سنة ١٨٠٢ .
. نصائح الأمة المحمدية
. نور الألباب .
. بيان وجوب الهجرة على العباد .

ذكر هذه القائمة الشيخ السيد آدم عبد الله الإلورى عميد التعليم العربى فى نيجيريا فى كتابه الاسلام فى نيجيريا ، ومع ذلك فقد ذكر بعض المتخصصين فى تاريخ الشيخ عثمان مؤلفات أخرى .

كانت حركة الشيخ عثمان دان فديو كالوهابية ، لقيت تشجيعاً وتعضيداً من المسلمين المخلصين الراغبين فى الاصلاح ، كما لقيت معارضة ومحاربة من

الحافظين الرجعيين . وممن أعجبهم منهج الشيخ عثمان فى الاصلاح سلطان المغرب فكتب إليه يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم صلوات الله على سيدنا محمد المصطفى الكريم وعلى آله وأصحابه الذين انتهجوا نهجه القويم، إلى السيد الذى مشا فى أقطار السودانيين عدله واشتهر فى الآفاق المغربية ديانته وفضله ، العلامة النبيه ، العديم فى زمانه الشبيه ذو النورين العلم والعمل . اللذين هما منتهى الأمر . السيد عثمان بن محمد ابن عثمان بن صالح الفلانى نفع الله بعلومه القاصى والدانى ، وسلامنا عليه ما اشتد شوقنا إليه ، ورحمة من الله تغشاه ، حتى لاتخشى إلا الله والله أحق أن تخشاه . وبعد فقد بلغنا من الثناء عليك ، والتعريف بأحوالك وأفعالك ذلك ما وجب محبتنا وتسليمنا إليك، وذلك لسان سلطان ناحيتكم أمير الطوائف الإسلامية بساحتكم المقر كتابه إلينا بفضلك ، وانك ناصح لله ، ذلك السلطان محمد الباقر ابن محمد العدل سلطان أهير ، فإنه أخبرنا بما قمت به من الواجب من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى له نصب الرسول الأمين والوزير والحاجب حتى دخل الناس فى دين الله أفواجاً وترادفت عليك وفود الإسلام أفواجاً وصار بلطف شمائلك انسان العين عين الإنسان .

الناس أكيس من أن يمدحوا رجلا
مالم يرو عنـــده آثار إحسان

وهذا من أعظم المنح وأتم النعم ، ولأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم . فالله تعالى يجازيكم عن الأمم خيراً ويقيكم خيراً ويديم دولتكم محفوظة محفوظة وبعين العناية ملحوظة وفى حصن الله الحريز تاليه . قال الله تعالى : « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا ونهوا بالمعروف عن المنكر ولله عاقبة الأمور » والسلام منا على جنابكم الذى صار الإسلام بخصوص نصيحتكم كالبيت المعمور . والسلام عليكم ورحمة الله »

ترك نجاح هذه الحركة الإصلاحية أثراً مدوياً فى أحوال المسلمين فى نيجيريا وفى غرب أفريقيا كلها ، فلم يعتمد الفولانيون فى نشر الإسلام على الجهاد وحده وإنما قاموا بجهود مشكورة لنشر الإسلام بالطرق السلمية ، كما حمل السلاطين أنفسهم على دفع الحركة الإسلامية إلى الأمام ، فبفضلهم انتشر الإسلام فى جنوب نيجيريا لاسيما فى الجنوب الغربى .

الشيخ محمد الأمين الكانمى

زعيم برنو

برنو — اليوم ، من أكبر مديريات شمال نيجيريا الشرقى ، وهى مجال كبير للمهتمين بشؤون التاريخ الاسلامى فى أفريقيا ، فقد كانت برنو من دول السودان الأوسط التى استقر فيها الاسلام ، وقد تكلم عنها بعض المؤرخين والجغرافيين العرب ، نذكر منهم ابن سعيد المغربى والمقريزى وابن خلدون ، والحسن بن محمد الوزان . وقد عنى شعب الكانورى الذى كان يؤلف العنصر الغالب بين السكان بتاريخ بلاده ، بالحفاظ على عدد كبير من الوثائق التاريخية التى تعين المؤرخ فى أبحاثه ، ولا سيما منذ القرن السادس عشر الذى يعتبر أزهى العصور فى تاريخ برنو ، وخاصة فى أثناء حكم السلطان ادريس علومه (١٥٧١ — ١٦٠٣) .

ويدين المؤرخون المحدثون ، إلى ما كتبه الامام أحمد بن فرتوه عن حكم هذا السلطان فقد أمدنا بكتابين : أولهما تاريخ مفصل لادريس بن علومه (على) خلال الاثنى عشرة سنة الأولى من حكمه (١٥٧١ — ١٥٨٣) ، وثانيهما حروب ادريس ضد قبائل البلالة (١) الذين كانوا قد دابوا على غزو بلاده عدة سنوات (٢)

وممن دأبوا على غزو برنو من ألف سنة ، شعب السفاوة (الميغومى) ، وقد اشتهروا بالشجاعة وحب القتال . وقد استطاع أن يؤسسوا لهم دولة فى بلاد كانم ، شرق بحيرة تشاد ، ثم أقدم سلالتهم على ضم أراضى جديدة غرب البحيرة . وفى القرن الخامس عشر ، طردت قبائل البلالة القوية هؤلاء الميغوميين من كانم

---

(١) bulalah

(٢) حقق هذان الكتابان فى اللغة العربية والانجليزية ، المؤرخ البريطانى ه . بالمر ونشر بوساطه مطبعة أمير كانو بنيجيريا عام ١٩٣٠ ، بعنوان .

(غربى بلادهم) ، فقصدوا لاجئين إلى المنطقة التى تعترف اليوم ببرنو (شمال شرقى نيجيريا) ، ثم أصبحوا فى نهاية القرن الخامس عشر الحكام المسيطرين على امبراطورية برنو ، التى أصبحت أقوى دولة اسلامية فى السودان الأوسط ، بل وفى غرب أفريقيا .

بعد أن ازدهرت برنو وسطع نجمها فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر تسلل الضعف اليها فى القرن السابع عشر . ولم يكن لخلفاء السلطان ادريس شأن هام . اذا استثنينا أيام على بن الحاج عمر رابع السلاطين (١٦٤٥ — ٨٥) بعد ادريس الكبير ، ثم خلفه حكام آخرون ضعفاء .

وفى بداية القرن التاسع عشر ، عجزت برنو عن صد أعدائها الذين شنوا عليها الغارات وكان الأعداء الجدد ، شعب الفولة ، وقد وقعت غارة هؤلاء فى أيام السلطان أحمد بن على ، وتمكن الفولة من اخضاع بلاد الهوسا التابعة لبرنو ، حدث ذلك حينما نهض الشيخ عثمان دان فوديو بجهاده الاسلامى فى أخريات القرن ١٨ على رأس قبائل الفولة فأخضع بلاد الهوسا كلها ودان له الحكام بالولاء .

هز ذلك النصر مشاعر الفولة الذين كانوا قد أصبحوا غالبية أهل برنو ، وكان لهم تأثير فكرى جعلهم يشغلون أكثر المناصب الكبرى ، فهبوا يرغبون فى الانضمام إلى حركة الشيخ عثمان الفودى ، فتأزم الوضع السياسى فى برنو ، وفر سلطانها أحمد إلى كانم مستنجدا بزعيمها الفقيه ، الحاج محمد الأمين الكانمى فتمكن الكانمى من اعادة السلطان أحمد إلى عرشه وطرد الفولة ، ثم مات أحمد (١٨١٠) ، وتولى الحكم ابنه وفى أيامه عاد الفولة ثانية إلى الحرب ضد برنو ، ثم استولوا على جاسر يحوموا عاصمة برنو وكادت تذوب الدولة الكبرى ، لولا أن تدخل الشيخ محمد الأمين الكانمى .

كان محمد الأمين ، آنذاك يبلغ الثلاثين من العمر ، ولد فى فزان من أبوين كانميين ، ويقال إن أباه كان مغربى الأصل وأمه من قبيلة زويلة وبعد أن أدى

محمد فريضة الحج بقى مدة فى المدينة والقاهرة ثم عاد إلى كانم واستقر بها وسرعان ما حظى بالتقدير لتقواه وحسن رأيه وعطفه على الناس ، وشهر بتفقهه ، ثم تزوج من إبنة أحد حكام برنو ، وكانت قاعدته فى [1] جنوب غربى بحيرة تشاد . فلما غزا الفولة بلاد هذا الحاكم ، هب الأمين فوراً للدفاع عن بلاد والد زوجه برجاله الكانميين لأنهم أفضل من رجال برنو فى القتال . وكان سلاح الكانمبو (أهل كانم) الحراب والمدى والسيوف والدرقات . وتمكن الأمين على رأس مواطنيه أن يرد هجمات جيش الفولة ، وأعاد السلطان أحمد إلى عرشه ، كما ذكرنا .

بيد أنه مات ، وخلفه ابنه « دونما » فأعاد الفولة الكرة ثانية ، ولما فشل « دونما » فى ردهم ، استنجد بالكانمى ، كما فعل أبوه من قبل . وفاز الأمين على الفولة ، بيد أن هذه المرة ، لم يستطع أن ينسحب من الميدان السياسى والعسكرى كما كان يفعل ، وآثر أن يجتمع الناس حوله ويخوض حربا ضد قوات الشيخ عثمان الفودى وأصبح فى الواقع صاحب الكلمة العليا فى برنو ، وليس السلطان دونما ، وكان بوسعه أن يعزل هذا السلطان ويتولى عرش البلاد ، بيد أنه لم يفعل وترك للسلطان ألقابه وبلاط الملك وجزءا من الدخل . كان السلطان يقيم فى بربوا ، بينما استقر الكانمى فى نكرنو .

وجد السلطان نفسه أمام منافس خطير وقوى ، فعمل على أن يخلص نفسه من « وصيه » الشيخ الأمين ، فهرب واستقر فى الشمال الغربى من بحيرة تشاد ، وعجز عن استعادة استقلاله كما يرضى ثم بدأ يدبر المكايد ، ولكن الكانمى استطاع فى آخر الأمر أن يعيده أولا إلى برنو ، ثم خلعه عن العرش ، ونصب مكانه أحد أعمامه ، فأبى أن يخضع لارادة الشيخ الأمين ، فجرده الأمين عن السلطة ، وأعاد العرش ثانية إلى دونما الذى ظل محتفظا بلقب السلطان فقط الى أن توفى عام ١٨١٨ ، بينما كان الحكم الفعلى فى قبضة الأمين من أجل المصلحة الوطنية للبلاد .

---

(١) Ngala

وكان محمد الكانمي قد عمد الى توكيد استقلاله عن الأسرة الحاكمة القديمة ، فبنى حاضرة جديدة «كوكاوا» (١٨١٤) ، واستطاع فى أثناء العشرين سنة التى عاشها أن يعيد إلى برنو سيادتها الأولى بعد أن مزقتها الحروب ، واستعاد من الفولة جزءا من الأراضى التى استولوا عليها ، وقاد الحملات ضد أهالى باجرمى فى الجنوب الشرقى، ثم تحالف مع عبدالكريم سابون سلطان واداى (١) ، وأعان الحرب ضد عثمان بركندا سلطان باجرمى . وأغار سابون على باجرمى ، ثم عقد اتفاقاً أصبحت بموجبه تلك البلاد تابعة له وأراد محمد أن يستعيض عما فقده ، فتحالف مع شيخ فزان (١٨١٨) ، ثم أغار على الجزء الشمالى من باجرمى ، وتقدم إلى ماسينيا ، لكنه لم ينتصر انتصارا حاسما لتحصن خصمه خلف نهر شارى . واستمر القتال بينهما إلى عام ١٨٢٤ حتى فاز البرنويون عند نفالة .

ولما اطمأن محمد من هذه الناحية ، وجه عنايته إلى الغرب ، فاستعاد منطقة باوتشى (فى شمال نيجيريا اليوم) ؛ ثم اضطر إلى مهادنة الفولة عام ١٨٢٦ (وكان عثمان دان فوديو قد توفى ؛ وخلفه فى الزعامة شقيقه واحد أبنائه) بعد أن لحقت به الهزيمة على يد السلطان بلو بن عثمان الفودى ، ثم استقر فى كوكاوا . وتوفى الأمين عام ١٨٣٥ تاركا الحكم لابنه الثانى عمر (١٨٣٥ — ١٨٨٠) فقد استشهد ابنه البكر فى قتال عام ١٨١٧ ضد باجرمى وكان اسمه محمد الأمين ، وفى عام ١٨٤٠ خلع عمر — آخر سلاطين برنو — عن الحكم لقد استطاع الأمين أن يعيد الأمن والهدوء إلى برنو ، وعمل بحكمة لإعادة الروح الاسلامية إلى قلوب المسلمين ، وفعل كثيرا من أجل ترقية التجارة والصناعة .

إن الكانمى يعتبر من أعلام أفريقيا اللامعين فى تاريخ نيجيريا خلال القرن التاسع عشر ، وممن ينبغى العناية بدراسة سيرة حياتهم ؛ كان عالماً دينيا فى مرتبة عثمان دان فوديو ؛ ولكنه أقرب منه إلى العالم العربى . وهناك أوجه شبه تجمع

---

(٢) هزمت قواته فيما بعد على أيام عمر بن الكانمي .

بين الكانمى والسلطان محمد بلو ، فالإثنان مصلحان مسلمان واداريان كفئان ، بالرغم من النضال المرير المتواصل الذى نشب بين دولتيهما ، تبودلت فى خلالها الرسائل الكثيرة التى توضح ماكان يجول بخاطر كل منهما ، وقد نشر أكثرها فى كتاب انفاق الميسور لمؤلفه الشيخ الزعيم محمد بلو رحمه الله .

وقد زار الرحالة البريطانى دينهام ، برنو عام ١٨٢٣ ، وعاش بها حوالى سنة فتعرف جيداً بالشيخ الأمين الكانمى ، وقد ترك لنا فصلا ممتعاً عن حياة هذا الزعيم الجليل ، فذكر أنه كان وسيما . يفيض وجهه بالشفقة ، عيناه كبيرتان وبراقتان ، يجيد الحديث بايجاز وفصاحة ، مستقيم التفكير ولا يعرف الالتواء وقد أحبه شعبه وأخلص له لكرمه واعتداله واحسانه وتواضعه . فإذا تزعم الجيش كان أسداً لا يضارى وقائداً فذاً .

أحمد بابا التنبكتي

(٩٦٣هـ – ١٠٣٢هـ)

عالم سنغاى

العلامة المحقق أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر محمد أقيت الصنهاجي السوداني التنبكتي الشهير بأحمد بابا المولود سنة ٩٦٣ هـ والمتوفى سنة ١٠٣٢ هـ ، وفى مرجع آخر سنة ١٠٣٦ هـ . وقد ترجم أحمد بابا نفسه فى آخر كتابه ، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس فى الديباج ، وله ترجمه أخرى – خلاصة الأثر .

وعلامتنا فقيه ضليع ووصفه فذ ؛ ينتسب إلى أسرة أقت الصنهاجية وقد ولد فى أروان من أعمال تنبكت ونشأ فى أسرة عريقة فى العلم تولى غالبية أفرادها مناصب القضاء . درس أحمد فى شبابه علوم الدين على جده وأبيه ثم كرس حياته لتعليم الفقه الإسلامى واللغة العربية فى جامعة تنبكت ؛ وألف ما يربى على الخمسين مؤلفا :ـ وصل إلينا بعضها .

وفى أيام الغزو المغربى دولة سنغى (١٠٠٠ هـ/ ١٥٩٢) خلال حكم سلطان المغرب أحمد المنصور الذهبي تعرضت تنبكت لمآسى شديدة وسقطت فى قبضة المغاربة ولكن العلامة أحمد لم يرضخ لحكمهم ورفض الاعتراف بهم فقبض عليه وعلى أفراد أسرته بأمر المنصور ثم قاده الجند إلى مراكش فدخلها فى ١٢ مايو ١٥٩٤ بعد أن تكبد المتاعب فى أثناء عبور الصحراء وقد اتهمه بإشعال نيران الفتنه ضد حكمه .

وفى أثناء الطريق كسرت ساقة أثر سقوطه من فوق ظهر دابته وفقد مئات المجلدات من كتبه النفيسه التى حملها معه وفى مراكش قدم للمحاكمة وهو مقيد بالحديد فحكم عليه بالسجن سنين فلائل ثم أطلق سراحه عام ١٥٩٦ . ولما دخلوا به لمقابلة سلطان المغرب المنصور الذهبي ، فحدثه حديثاً جريئاً وقال

المنصور ، أى حاجة لك فى نهب متاعى وتصفيدى من تلمكت إلى هنا حتى سقطت من على ظهر الجمل وأنكسرت رجلى . فقال له السلطان أردنا ذلك كى يجتمع الكلمة (أى كلمة المسلمين) . فقال له الشيخ أحمد : هلا جمعتها بتركك مدينة تلمسان فأجابه السلطان برد ضعيف فأسكته أحمد بابا .

ولما أطلق سراح أحمد بابا ، غادر مراكش وانقطع للفتوى والتاليف فى جامع الشرفاء وكان يستمع لدروسه أناس كثيرون ، ويعهد إليه بالافتاء . وفى تلك الفترة نسق كتابه «نيل الابتهاج بتطريز الديباج»[1] (١٠٠٥ هـ/١٥٩٦ م) ويعتبر كتابه هذا ملحقا لقاموس فقهاء المالكية الذى كان ألفه العلامة بن فرجون فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر(٢) وبعد ذلك انصرف علامتنا أحمد بابا إلى العمل فى إنجاز كتاب موجز تناول فيه الحديث عن فقهاء المالكية الذين لم يذكرهم ابن فرجون فى سفره ، وعنوان كتابه : كفاية المجتهد لمعرفة ماليس فى الديباج .

وقد أصبح الكتابان من أهم المراجع فى موضوعها فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ولايزالان حتى اليوم . فإن صفحات الكتابين المذكورين لاتحتوى فقط على مشاهير علماء المالكية . بل إنهما فى الواقع موسوعة فى الحركة الدينية المغربية التى ضمت فى صفوفها كثيراً من رجال الدين الأتقياء الذين عرفهم الناس فيما بعد بالأولياء الصالحين .

وقد تحدث أحمد بابا نفسه عن واحد من أساتذته فى نيـــل الابتهاج (ص — ٣١٣) الذين كانوا لهم الأثر الأقوى فى حياته فقال عنه .

« وبالجملة فهو شيخى وأستاذى ما انتفعت بأحد انتفاعى » ثم قال عنه فى فى موضع آخر : وكان له صبر عظيم على التعليم إناء الليل والنهار ، وحصل على

---

(١) صدرت فى ياس عام ١٣١٧ هـ نسخه مصورة من نيل الابتهاج وطبع فيما بعد فى القاهرة عام ١٣٢٩ هـ فى هوامش الديباج .

(٢) عنوان هذا القاموس « الديباج المذهب فى معرفه أعيان علماء المذاهب .

إيصال الفائدة البليد بلا مال ولا حصر ، حتى يضجر حاضروه وهو لا يكترث، فنفع الله به كثيراً .

ولما ولى العرش السلطان زيدان بعد المنصور أذن له بالعودة مع أفراد أسرته إلى تنبكت (١٦٠٥) فرجع إلى وطنه وواصل حياته لتعليم الفقه ، فتتلمذ له عدد كبير من أبناء سنغي وكان من بين تلامذته العلامة عبد الرحمن السعدى المؤرخ السودانى الشهير بمؤلفه « تاريخ السودان » .

وقد توفى عالمنا الجليل رحمه الله في عام ١٦٢٧ ،

وأسلوب أحمد بابا شيق وجزيل ومتين . شيق من حيث أن الموضوعات التى طرقها موضوعات طريفة فى حد ذاتها فقد ألف كما قلنا فى تراجم العلماء المالكية وكتب رسالة فى مراكش حول حكم الإسلام فى امتلاك المسلم للمسلم كعبد ، اسمها الكشف والبيان لحكم بجلوب السودان . فقال فيه « وإن شئت فسمه معراج الصعود إلى نيل حكم بجلوب السود (١).

وأحمد بابا متمكن من الألفاظ التى يستعملها وفى المفردات التى تتركب منها جملة فهى كلمات متناسقة مما جعل جمله قصيرة أيضاً ، شأن المتمكن من اللغة .(٢)

وقد كتب أحمد بابا هايرى على الأربعين كتاباً ورسالة فى موضوعات متنوعه بالإضافة إلى ما ذكرناه ولا يعرف من مصنفاته الأخرى سوى ما يأتى : —

---

(١) مخطوط المكتبة الوطنية فى باريس رقم ١٨٩٣ وفى مكتبته الرباط أيضاً ثمانى نسخ .

(٢) عبد القادر زيادة : مملكته سنغاى فى عهد الأسبقين ص ٥٧ ، الجزائر .

. شرحان موجزان لمختصر الخليل بن اسحق .

. حواشى كثيرة على فقرات من كتاب المختصر المذكور .

. حاشية منن الرب الجليل فى مهمة تحرير خليل .

. فوائد النكاح على مختصر كتاب الشوشاح للسيوطى .

. تنبيه الواقف على تحرير . . . . نية الحالف .

. ترتيب جامع المعيار » للونشريشى .

. النكت الوفية بشرح الألفية لابن مالك .

. النكت الزكية بشرح الألفية .

. غاية الإجادة فى مساواة الفاعل للمبتدأ فى شرط الإفادة .

. نيل الأمل فى تفضيل النية على العمل .

. شرح الصغرى للسنوسى .

. مختصر ترجمة السنوسى وهو موجز للكتاب المواهب القدوسية فى المناقب السنوسية لمحمد الملالى التلمسانى .

. المطالب والمآرب فى أعظم أسماء الرب (تعالى) فى كراسة .

كتاب شرح الصدور وتنوير القلوب ببيان مغفرة ما نسب . . . ،

عبد الرحمن السعدى

مؤرخ سنغاى

(١٥٩٦ - ١٦٥٦)

هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدى مؤرخ سنغاى الإسلامية التى نهضت فى غرب أفريقيا أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر. إنتمى إلى أسره من الفقهاء الأجلاء فى تنبكت حيث ولد فى غرة جمادى الآخرة سنة ١٠٠٤ ﻫ (١٥٩٦) وتلقى العلم فيها على شيخ علماء الفقه أحمد بابا التنبكتى وفيرة من الأشياخ، وأتم تعليمه فسعى مع أخوته إلى العمل فى مدينة جنة التى كانت تنافس آنذاك تنبكت فى حياتها العسكرية والتجارية. وقد أفلح فى سنة ١٦٢٦ فى الحصول فى جنة على منصب إمام مسجد سنكورة ومعهده.

تحدث السعدى عن طائفة من أشياخه المعلمين الذين درس عليهم وذكر عن كل منهم — المادة التى درسها عليه والطريقة التى أخذ بها المادة والمدة التى استغرقها فى الملازمة وينهى حديثه بهذه العبارة : « إنه أجازنى بخطة جميع مايجوز له وعنه.»(١)

وفى أواخر سنة ١٠٣٩ ﻫ (١٦٣٠) رحل إلى مملكة ماسنه وغالبيتها من قبائل الفولة وهى تقع شمالى جنه على الضفة اليسرى من نهر النيجر وكانت تلك المملكة فى ذلك الحين تشمل على جزيرة جميلة فى النيجر. وقد دعاه إلى زيارة ماسنة قاضيها بيد أنه استقبل استقبالا حسنا من السلطان ومن أعيان البلاد حتى أنه عاد فزارها مرة ثانية بعد ثلاث سنوات.

وفى أثناء حملة المغرب واستيلائه على أجزاء كثيرة من سنغاى، قاسى

---

(١) عبد الرحمن السعدى : تاريخ السودان ص ٤٦ .

المؤرخ عبد الرحمن وأسرته من ظلم الولاة المغربيين فى جنه ، ونفى واحد من أخوته سنة ١٦٣٤ إلى تنبكت . ولما تدخل السعدى متوسطا عزل من منصبه فشكا أمره إلى حاكم تنبكت المعروف بالباشا ، فما كان منه إلا أن طرد حاكم جنه . وفى عام ١٦٤٦ استدعاه محمد بن عثمان باشا تنبكت ليشغل منصب ناظر خارجيته ، فظل فى هذا المنصب حتى توفاه الله فى سنة ١٦٥٦ . وفى خلال توليته المنصب المذكور سافر كثيراً متجولا فى أنحاء دولة سنغاى وكان قد استقر رأيه على أن يكتب تاريخا لوطنه واستطاع الفراغ منه فى يوم الاثنين ٢٨ أكتوبر ١٦٥٣ (٥ ذى الحجة سنة ١٠٦٣ هـ) وسماه تاريخ السودان .

بدأ السعدى كتابه ببيان التاريخ القديم لقبائل سنغاى ومالى والطوارق ولمدينتى جنه وتنبكت وذكر ملوك سنغاى من أولهم وهو على كان واستيلاء السلطان موسى على مملكة سنغاى ، وذكر مملكة مالى (ملى) ، وجنه ، ونبذة من أخبارها ، كما تناول ذكر العلماء والصالحين والقضاة الذين عاشوا فى جنه ، وتحدث عن تنبكت ونشأتها ، وألم قبائل الطوارق (التوارق) وذكر بعض العلماء والصالحين الذين سكنوا تنبكت ونبذة من كتاب أستاذه الذيل لأحمد بابا وذكر أئمة المسجد الجامع ومسجد سنكورى وذكر الظالم الأكبر السلطان سنى على ، وأمير المؤمنين السلطان (أسكيا) الحاج محمد بن أبى بكر ، وأسكيا موسى وأسكيا محمد وأسكيا محمد وأسكيا إسماعيل وأسكيا اسحق وأسكيا داود وغزواته ، وأسكيا الحاج وأسكيا محمد وذكر مجىء الباشا المغربى جودر - إلى بلاده وذكر أسر أسكيا محمد كاغ وحروب الباشا محمود بن زرقون والباشا محمد طايع وعمار ووصف بلاد ماسنا ووصف آفات ومحن مدينة مراكش وأتى على تاريخ الملوك السعديين كما ذكر الوفيات والتواريخ لبعض الفقهاء والأجناد منذ وصول القائد جودر إلى عام ١٠٢١ هـ وإلى عام ١٠٣٩ . ويعتبر هذا الكتاب من أهم المراجع عن تاريخ دولة سنغاى فى أثناء القرنين السادس عشر إلى منتصف القرن السابع عشر .

ويرجع الفضل فى نشر مخطوط هذا السفر الهام إلى المستشرقين الفرنسيين

هوداس ، وبنوا(١) فقد ترجماه إلى اللغة الفرنسية فى عام ١٩٠٠ ثم ترجم فيما بعد إلى اللغة الإنكليزية وأسلوب السعدى بعيد عن الجزالة وكثيراً ما يتخلله الحشو وأحياناً تقابلنا فيه تعبيرات غامضة أو دارجة ولا غرو : فقد كتب السعدى مؤلفه حينما بدأت اللغة العربية تضعف فى بلاده (فى القرنين ١٦ ، ١٧)
وفى مقدمة كتابه ذكر السعدى الأسباب التى دفعته على التأليف فى تاريخ وطنه ، فقال : —

« . . . ولما رأيت انقراض ذلك العلم (التاريخ) ودروسه ، وذهاب ديناره وفلوسه ، وأنه كبير الفوائد كثيراً ، لما فيه من معرفة المرء أخبار وطنه وأسلافه وتواريخهم ووفياتهم . فاستعنت بالله سبحانه وتعالى فى كتب مارويت من ذكر ملوك السودان ، أهل سنغى ، وقصصهم وأخبارهم وسيرهم وغزواتهم وذكر تنبكت ونشأتها ومن ملكها من الملوك وذكر بعض العلماء والصالحين الذين توطنوا فيها وغير ذلك إلى آخر الدولة الأحمدية الهاشمية العباسية سلطان مدينة الحمراء مراكش .

والجزء الأكبر من تاريخ السودان ، هو الذى كتبه السعدى عن حكم الباشوات المغاربة فى سنغاى . ومن أجل ذلك يعتبر مؤلفه النفيس من أدق المراجع عن السودان الغربى فى تلك الفترة .

يتحدث المؤرخ عبد الرحمن عن أستاذه الوانلورى ، فيقول : لقد تعلمت منه الكثير وأجاز لى كتبا قرأتها عليه بخط يده ، وأهديت إليه بعض المصنفات التى ألفتها بمساعدته . ثم يسرد السعدى فى تاريخه براهين تؤكد وجود مجتمع مثقف عربى يشبه المجتمعات الأخرى فى الشمال العربى الأفريقى .

ومن علماء التاريخ الذين ذكرهم السعدى فى كتابه .. محمود كعت ابن الحاج المتوكل كعت وكان من أصدقاء السلطان الحاج محمد أسكيا الكبير المقربين وهو مؤلف جزء كبير من كتابه . . تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش

---

(١) Houdas و benois .

وأكابر الناس . توفاه الله سنة ١٥٩٣ الموافق لسنة ١٠٠٢ بعد الهجرة النبوية وقد ترجم الفتاش المستشرقان هوداس ودى لافوس إلى الفرنسية وطبع بباريس عام ١٩١٣ كما صدرت النسخة العربية فى العام المذكور .

* * *

قلنا إن المؤرخ السعدى فرغ من تأليف تاريخه فى ٢٨ أكتوبر ١٦٥٣ لجاء كاتب مجهول ولد فى تنبكت سنة ١١٦٤هـ (١٧٥١) وكان حفيداً من أحفاد الأمير محمد بن سوور ، فأتم تاريخ السعدى بكتابة تاريخ عن الولاة المراكشيين فى سنغاى عنوانه : « تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان » وقد حققه المستشرق هوداس وطبع فى باريس عام ١٩٠١ .

عبد الرحمن زكى

انتهى بحمد الله الكريم

الفهرست

الخرائط

مطبعة المـدنى
٦٨ شارع العباسية ـ القاهرة